

297.3
1721 E 41
v. 1
c. 1

سلسلة في الدراسات الفلسفية والأخلاقية

يشرف على إصدارها الدكتور محمود قاسم أستاذ الفلسفة المساعد بجامعة القاهرة

التفكير الفلسفي في الإسلام

الجزء الأول

بقلم

الدكتور عبد السلام محمود

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد

القاهرة

١٩٥٥

مطبعة مخيمر
٢٩ شارع الجيوش ت ٤٧١٩٢

لله هبة

إلى أخى عبد الغنى محمود على ، مدير مدارس الإسلام الكبرى
بالجيزة ، أهدى هذا السفر .

تقديرا لجهاده المثمر فى تثقيف أبناء الوطن .

عبد الحليم محمود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ ، وَلَمْ يُولَدْ ،
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ^(١) .

(١) إنها سورة الإخلاص ، وهي تشتمل على أهم ركن من الأركان التي قامت عليها الرسالة الإسلامية ، وأعني به توحيد الله وتنزيهه. وقد ورد في الخبر أنها تعدل ثلث القرآن : ولأن من عرف معناها حق المعرفة ، وأدرك ما أشارت إليه إدراك صاحب البصيرة المستنيرة ، لم يكن بقية ما جاء في التوحيد والتنزيه عنده إلا تفصيلاً لما علم ، وشرحاً لما حصل ، .

مقدمة

(١)

اللهم أنا نستعينك ونستهديك ، ونسألك الرعاية والتوفيق ، أما بعد فهذا كتاب يهدف إلى تأريخ التفكير الفلسفي في الإسلام في أطواره المختلفة . والتفكير الإسلامي متشعب الجوانب ، مترامى الأطراف ، ولا يمكن لشخص ما أن يلم به في جميع مناحيه وبيئاته ، ولذلك حددنا بحثنا بالتفكير الفلسفي . على أن التفكير الفلسفي نفسه ضخم هائل ، ودراسته تحتاج إلى أن نبدأ به منذ نشأته ؛ بل إن نشأته نفسها تحتاج إلى دراسة الجو الذي نشأ فيه . سندرس إن شاء الله هذا الجو ، وسندرس أيضاً القرآن من حيث القضايا الفلسفية التي أتى بها واستدل عليها . والقرآن وإن كان كتاباً مقدساً ووحياً من السماء وليس ثمرة من ثمار التفكير البشري : فإنه كان الأساس الأول الذي مهد لما جد بعد ذلك من مذاهب وآراء .

وسنسير مع التفكير الإسلامي سيراً زمنياً : فندرس النزعات الأولى ، والآراء التي تكاد تكون فردية ، والفرق التي لم تتصل كثيراً بالجدل العلمي ، حتى ننتهي إلى المعتزلة والأشاعرة ومدرسة ابن تيمية ، وننتهي إلى الشيخ محمد عبده . هذا فيما يتعلق بالتيار الكلامي .

وسندرس التيار الفلسفي المحض إن شاء تعالى ، سندرس السكندی والقارابي وابن سينا ، وسندرس الغزالي ، وسننتقل مع الفلسفة إلى المغرب فندرس ابن باجه وابن الطفيل وابن رشد ، وسنستمرسل معها في المشرق بعد الغزالي إلى أن ننتهى إلى جمال الدين الأفغاني . كل هذه المسائل وغيرها ستكون موضع عنايتنا إذا أنشأ الله في الأجل وأطال في الحياه .

وقد سبق أن درسنا هذه الموضوعات ، ودرسناها وكتبنا عن بعضها في إيجاز أحياناً ، وفي استفاضة أحياناً أخرى . وإنا لندعو من الله تعالى ، في كل ما نأتى وما ندع ، الهداية والتوفيق .

(٢)

ولقد توهم بعض الكتاب أن التفكير الإسلامي أخذ يتدرج وينمو شيئاً فشيئاً على مر الزمن حتى أصبح ناضجاً عميقاً ، وحاولوا - في شيء من التعسف - أن يقدروا تيار التفكير الإسلامي على هذا الأساس ، ويتحدثوا عنه طفلاً ، فشاباً ، فرجلاً .

وانكن التفكير الإسلامي بدأ في قوة جارفة بالقرآن - وبمحمد صلى الله عليه وسلم - وإذا ما تركنا القرآن ومحمداً صلى الله عليه وسلم جانباً : لأنهما أمران إلهيان ، فإننا نرى في بدء الإسلام الأفذاذ في مختلف النواحي :

خالد بن الوليد ، في رسم الخطة الحربية ، وتنفيذها ، وذلك فن وعبقريه ،
وعمر بن الخطاب في الإدارة والسياسة والتشريع . وإنه ليندر أن تجد
من يماثلهما على مر العصور .

وإذا ضربنا المثل بالتشريع ، فإننا نجد تيارين يسيران متجاورين
من أهل الرأي وأهل الحديث : فقد كانوا يسرون جنباً إلى جنب منذ
أن بدأت الدولة الإسلامية ولا يزالون كذلك إلى الآن .

كان هناك ربيعة الرأي وابن المسيب . والاول يمثل مدرسة الرأي
والثاني يمثل مدرسة الحديث . وكان هناك ابراهيم النخعي ، وبحواره في
الكوفة نفسها يحدث الكوفة شُرْحِبِيلُ الشَّعْبِي . ثم كان أبو حنيفة يمثل
مدرسة الرأي ، ومالك يمثل مدرسة الحديث .

وإذا نظرنا إلى التيار الفلسفي فإننا نجد المشبهة يسرون جنباً إلى جنب مع
المعتزلة ومع الكندي والفارابي وابن سينا ، ونجد ابن باجة وابن الطفيل
متأخرين في النشأة عن الفارابي وابن سينا ، ولم يبلغا شأوهما ، والأشاعرة
كانت نشأتهم بعد نشأة المعتزلة ، ومدرسة ابن تيمية أتت بعد مدرسة
الأشعرى ؛ فهل كان المعتزلة أقل عمقاً وأقل نضجاً من الأشاعرة ؛ وهل
كان الأشاعرة أقل تفكيراً من مدرسة ابن تيمية ؟

ثم ما هو هذا الجنين الذي نشأ وترعرع وشب وانهى إلى مقدمة
ابن خلدون .

الواقع أن التفكير الإسلامى كان بين مد وجزر ، وخنول ونشاط ،
وضعف وقوة .

وسندرسه على هذا الأساس إن شاء الله تعالى .

(٣)

والجزء الذى بين أيدي القراء الآن خاص بالعصر الأول من التفكير
الإسلامى : أى إلى ظهور واصل بن عطاء الذى ولد فى المدينة سنة ٨٠ هـ
وتوفى سنة ١٣١ هـ . أو - تقريبا - إلى وفاة الحسن البصرى فى سنة ١١٠ هـ
وسندرس فى هذه الفترة - فيما عدا القرآن ومهد القرآن - السلف
والشيعة والخوارج ، والجهمية وبعض الأفكار الفردية .
ونرجو ألاّ ينتهى القراء من قراءته حتى يكون بين أيديهم الجزء الثانى ،
فالثالث ، إلى أن تنتهى السلسلة إن شاء الله تعالى .

(٤)

وسيرى القراء فى هذا الجزء - كما سيرون فى الأجزاء الأخرى -
أننا نبدى رأينا فى المسائل والآراء ونحكم عليها ، وليس هذا مسالك جميع
المؤرخين ، فالشهرستانى مثلا يقول فى كتابه « الملل والنحل » : « وشرطى
على نفسى أن أورد مذهب كل فرقة على ما وجدته فى كتبهم من غير تعصب
لهم ، ولا كسر عليهم ، دون أن أبين صحيحته من فاسده ، وأعين حقه

من باطله ، وإن كان لا يخفى على الأفهام في مدارج الدلائل العقلية لمحات الحق ، ونفحات الباطل ؛ وبالله التوفيق .

بيد أن الشهرستاني لم يلزم هذه الخطئة ، ونقضها بعد صفحات تعد على الأصابع ، فيقول : « فالمعتزلة مشبهة الأفعال ، والمشبهة حلولية الصفات ، وكل واحد منهم أعور بأى عينيه شاء ، فإن من قال : إنما يحسن منه ما يحسن منا ، ويقبح منه ما يقبح منا ، فقد شبه الخالق بالخلق ؛ ومن قال بوصف البارئ تعالى بما يوصف به الخلق ، أو يوصف الخلق بما يوصف به البارئ تعالى ، فقد اعتزل عن الحق . . . »

« وشبه النبي — صلى الله عليه وسلم — كل فرقة ضالة من هذه الأمة ، بأمة ضالة من الأمم السالفة ؛ فقال « القدرية : بجوس هذه الأمة ، وقال : المشبهة يهود هذه الأمة ، والروافض نصاراها . »

ولم ير الشهرستاني أن الواجب يحتم عليه بيان قيمة هذا الحديث من ناحية وضعه أو ضعفه ، ذلك أن هذا الحديث يصور رأى الشهرستاني نفسه .

ويرى بعض الذين ينتسبون للناحية العلمية ، بالمعنى الحديث ، أنه لا يجوز للإنسان أن يحكم على المسائل والآراء بالحسن والقبح أو بالخير والشر : لأن ذلك لا مقياس له .

ولكنى لم أتابع الشهرستاني في حيده المزعومة ، فهو نفسه لم يتبعها . ولم أجاز النزعة العلمية الحديثة : لأننى لا أعرف كيف يكتب مؤمن في مسائل الإيمان دون أن يبدى رأيه .

وأريد أن أعلنها صريحة واضحة : إنني أكتب في هذا الموضوع وأنا مسلم معتز بإسلامي ، وإذا لم يجد أرباب النزعة العلمية الحديثة مقياساً للحكم فسأخذ أنا الإسلام مقياساً للحكم على الآراء .

والإسلام يوجب عرض الآراء في دقة سواء أكانت مؤيدة له أم معارضة . وقد ضرب لنا القرآن في ذلك خير الأمثال .

والإمام الغزالي يوجب عرض آراء المعارضين أحسن عرض ، وتصويرها أحسن تصوير . إنه يوجب عرضها وتصويرها كما يعرضها ويصورها زعماء المذهب أنفسهم ، ثم بعد ذلك يأتي دور النقد والتحجيص . على هذا النمط سنسير إن شاء الله تعالى .

(٥)

وقد جرينا على أن علم الكلام جزء من التفكير الفلسفي في الإسلام ، وجارينا في هذا الكثيرين من مؤرخي الفلسفة الإسلامية أمثال رينان والمرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرزاق .

يقول رينان : - « إن الحركة الفاسفية الحقيقية في الإسلام ينبغي أن تلتبس في مذاهب المتكلمين ،

ويقول : « الشيخ مصطفى عبد الرزاق ،

« أصبح لفظ الفلسفة الإسلامية أو العربية شاملاً ، كما بينه الأستاذ هرتن ، لما يسمى فلسفة أو حكمة ولمباحث علم الكلام . وقد اشتد الميل إلى اعتبار التصوف أيضاً من شعب هذه الفلسفة ، خصوصاً في العهد الأخير

الذى عنى فيه المستشرقون بدراسة التصوف ، تمهيد ص ٢٦ - ٢٧ . بل أن الشيخ مصطفى عبد الرازق يعد « أصول الفقه ، من الفلسفة الإسلامية . وسنبدى رأينا أن شاء الله في أن التصوف وأصول الفقه هل هما من الفلسفة أم لا عندما نتحدث عن التيار الفلسفى البحث فى الجزء التالى ان شاء الله تعالى .

(٦)

ولقد شاع بين كثير من الناس أن الفلسفة موضوع غامض مبهم، ولعل من الأسباب التى روجت هذه الاشاعة أن بعض الفلاسفة كان يعتمد المغموض والابهام ، حتى لقد قال هرقلطس عن نفسه : « إنه لا يفصح عن الفكر ولا يخفيه ، ولكنه يشير إليه . وابن سينا يسمى أحد كتبه « الاشارات والتنبيهات » .

ثم إن الفلاسفة لم تكن عنايتهم باللغة وبالأدب كعناية الأدباء ، وكان من الطبيعى أن تكون سلاسة الأسلوب وفصاحة التعبير عند بعضهم أقل منها عند الأدباء .

وبما لا شك فيه أن موضوع الفلسفة لا يمتاز بالسهولة والوضوح . هذه الأسباب ، كلها أو بعضها ، كانت سببا فى انتشار تلك الإشاعة وسوف لا أنعمد الغموض أن شاء الله تعالى وسأعمل جهدى لىكون الأسلوب سهلا والموضوع واضحا . وأرجو ألا يجد القارئ من ذلك إلا ما يسر .

ولكن هذا الأسلوب الذى أعجل جهدى فى أن يكون سهلا لا يعوّد الطلبة على الأساليب الفلسفية ، ولا مناص من سد هذا النقص : ولذلك اقتبست كثيرا من النصوص الفلسفية على اختلاف أساليبها ، وجاريت فى هذا المرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق فى كتابه « تمهيد لتاريخ الفلسفة » الذى نشر صحفه « فى صياغتها التعليمية » التى تراعى حاجة الطلاب إلى مراجعة النصوص الكثيرة ، وحسن التدبر والفهم للأساليب المتفاوتة وإن لم يخف ذلك على ذوق المطالعين جميعا .

(٧)

وكلمة أخيرة : إن النزعة الاستعمارية حاولت ، منذ زمن بعيد ، اتهام الشرقيين بأنهم بطيعةهم أقل من الغربيين فى جميع ميادين الحضارة ، وتأثر بهذه الفكرة بعض مؤرخى الفلسفة الإسلامية : فسكتبوا فى الفلسفة الإسلامية على أنها مجرد تقليد ، أو تلفيق ، أو ترجمة للفلسفة اليونانية .

ولعل من الخير أن ننصف دائما - كلما وجدنا إلى ذلك سبيلا - هذا الشرق المظلوم ، فنبين أصالة الفلسفة الإسلامية فيما لها فيه أصالة ، وألا نحيف عليها فى بعض ما تعتز به ؛ وبالله الهداية والتوفيق . يناير سنة ١٩٥٥

عبد الحليم محمود

الفصل الأول

الجو الذي نشأ فيه الإسلام

(١)

الحنفاء

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له الأرض تحمل صخرًا ثقلاً
دحاًها فلما استوت شدّها سواءً وأرسي عليها الجبالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت له المِزَنُ تحمل عذاباً زلالا
إذا هي سيقست إلى بلدة أطاعت فصبت عليها سجّالا

بهذه الآيات كان يترنم زيد بن عمرو بن نفيل ثم يستقبل البيت ويقول:

ليبك حقاً حقاً ، تعبداً ورقاً ، البرّ (٢) أرجو لا الخال (٣) ، وهل

مهجر (٤) كمن قال (٥) ثم ينشد :

(١) من مصادر هذا الفصل : الأغاني ج ٣ ، ٥ . في الأدب الجاهلي

للدكتور طه حسين . سيرة ابن هشام والروض الأنف . تمهيد لتاريخ الفلسفة
للمرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق . فجر الإسلام للمرحوم الدكتور
أحمد أمين . الملل والنحل للشهرستاني .

(٢) البر : الطاعة والخير (٣) الخال : الخيلاء (٤) المهجر : السائر

في الهجرة (٥) قال : أقام في القائلة .

عذت بما عاذ به إبراهيم مستقبل الكعبة وهو قائم
يقول أنفي لك عان راغم مهما تجشمني فإني جاشم^(١)
ثم يسجد

كان زيد بن عمرو عربياً أصيلاً ، فهو ابن عم سيدنا عمر بن الخطاب .
وهو أبو سعيد بن زيد أحد العشرة المسمين للجنة . وكان أحد من اعتزل
عبادة الأوثان ، وامتنع عن أكل ما ذبح باسمها ، وكثيراً ما أنكر على قريش
ذبحها على غير اسم الله قائلًا :

: يا معشر قريش ، أيرسل الله قطر السماء ، وينبت بقل الأرض ،
ويخلق السائمة فتري فيه ، وتذبحونها لغيره ؟ !

ولقد أثارت حالته هذه اهتمام بعض علماء الكلام من قديم الزمان
وهم من أجل ذلك يذكرونه عند تعريفهم للنبي ويتساءلون : أهو خارج عن
التعريف أم داخل فيه : يقول الجلال الدواني في تعريف النبي :

«هو إنسان بعثه الله تعالى إلى الخلق لتبليغ ما أوحاه إليه ، وعلى هذا
لا يشمل من أوحى إليه ما يحتاج إليه لكمالته في نفسه من غير أن يكون
مبعوثاً إلى غيره كما قيل في زيد بن عمرو بن نفيل اللهم إلا أن يتكلف ،^(٢)
ولعل من الأسباب التي وجهت بعض المتكلمين إلى ذكر زيد عند حديثهم

(١) الأغاني : الجزء الثالث ص ١٢٤ .

(٢) العقائد المضدية ص ٢ .

عن النبوة ما روى عن سعيد بن زيد بن عمرو قال : سألت أنا وعمر
ابن الخطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن زيد فقال : « يأتي يوم القيامة
أمة وحده » .

وسواء أكان زيد نبياً أوحى إليه بما يكمل نفسه ، أم لم يكن نبياً : فإنه
كان من هؤلاء الذين يتطلبون المعرفة الحقيقية ، ويسعون وراءها جاهدين .
كان يعتصر ذهنه ، ويشجذ شعوره : يريد أن يحل ألغاز الكون ، ويكشف
أسرار العالم ، ويجيب عن : من أين ؟ وإلى أين ؟ ولم ؟ ولكنه يتلفت عن
يمين ، ويتلفت عن يسار فلا يجد نفسه إلا في بيداء مظلمة ، وفي ضلال محيط ؛
ويثور شعوره الديني فينشد ، وكأنه يصرخ أو يستغيث :

أربا واحداً أم ألف رب	أدين إذا تُقسِّمَت الأمور
عزلت اللَّاتَ والعُزَّى جميعاً	كذلك يفعل الجَلْدُ الصبور
فلا العزَّى أدين ولا ابنتها	ولا صَنَمَى بنى عمرو أزور
ولا هُبَلاً أدين وكان رباً	لنا في الدَّهرِ إذ حلَى يسير
عجبت وفي الليالي مُعْجِبات	وفي الأيام يعرفها البصير
بأنَّ اللهَ قد أفنى رجالا	كثيراً كان شَأْنُهُمُ الفيجور
وأبقى آخرينَ ببر قوم	فيربو منهمُ الطفل الصغير
وبينا المرءُ يَفْشُرُ ثاب يوماً	كما يترَوِّحُ الغصنُ المطير
ولكن أعبد الرحمن ربي	ليغفر ذنبيَ الرب الغفور

فتقوى الله ربكم احفظوها متى ما تحفظوها لا تبوروا
تري الأبرار دأرهم جنان وللـكفار حامية سعيهم
وخزى في الحياة وإن يموتوا يلاقوا ما نصيق به الصدور

ولكن الهداية إلى الدين القويم لم تكن إذ ذاك سهلة هينة . وإذا كانت
الوثنية ضلالاً فإن هي الهداية ؟ وإذا كان قد ترك اللات والعزى وهبل
فإلى أين يتجه ؟ ويستولى عليه شعور ديني عميق ، ويغمره فيض من التطلع
إلى المعرفة : فلا يجد مفرّاً من الهجرة يستنبي أثناءها الطاعن والمقيم عليه
يجد من يرشده إلى سبيل الله القويم ، والقصة التالية توضح لنا — سواء
أصحت أم لم تصح — الكثير من جوانب نفسه وبما كان يشعر به نحو
اليهودية والنصرانية حينئذ :

وهي كما رواها صاحب الأغاني : إن زيد بن عمرو خرج إلى الشام يسأل
عن الدين ويتبعه ، فلقى عالماً من اليهود : فسأله عن دينهم فقال : لعل أدين
بدينكم فأخبرني بدينكم . فقال اليهودي : إنك لا تكون على ديننا حتى تأخذ
بنصيبك من غضب الله . فقال زيد بن عمرو : لا أفر إلا من غضب الله
وما أحمل من غضب الله شيئاً أبداً وأنا أستطيع ، فهل تدلني على دين ليس
فيه هذا ؟ قال : ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً ؛ قال : وما الحنيف ؟ قال :
دين إبراهيم ، فخرج من عنده وتركه . فأتى عالماً من علماء النصارى فقال
له نحواً مما قال لليهودي . فقال له النصراني ، إنك لن تكون على ديننا حتى

تأخذ بنصيبك من لعنة الله . فقال : إني لا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئاً أبداً وأنا أستطيع . فهل تدلني على دين ليس فيه هذا ؟ فقال له نحواً بما قال اليهودي : لا أعلمه إلا أن يكون حنيفاً ، فخرج من عندهما وقد رضى بما أخبراه واتفقا عليه من دين إبراهيم ، فلما برز رفع يديه وقال : اللهم إني على دين إبراهيم .

استمر زيد يجاهد في سبيل الوصول إلى الله ؛ كان يجاهد تارة بمنطقه وتفكيره ، وتارة بسؤاله كل من يصادفه من ذوى المعرفة الدينية ، كان يسأل الناس إذا أقام ، ويسألهم إذا ارتحل ، حتى انتهى في النهاية إلى مذهب اطمأنت إليه نفسه ، فخطب قريشاً قائلاً : « يا معشر قريش ، والذي نفسى بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى » .

ويقول الدكتور طه حسين عن زيد : إنه كان « رجلاً رقيقاً ، ليناً ، مرفف الحس ، ذكي القلب ، نقي الطبع ، مستعداً للإيمان الصادق ، مبعوضاً للقديم ، شديد النشاط للتجديد ؛ شك في وثنية قومه ، ثم جحدها ، واتمس ديناً صفواً ، وملة نقية ، وجعل ينكر على قريش ما كانت فيه ، فكانت قريش تسمع منه وتعرض ولا تحفل بما كان يقول . ولما كان الخطاب ابن نفيل ثبت له ، ثم قاومه ، ثم جحد في فتنه حتى أشقاه ، ثم حبسه في مكة ، ثم أغرى به الشباب حتى اضطروه إلى أن يستخفي وأن يحتال في الفرار من مكة ليلتمس ما كان يحب من دين عند اليهود والنصارى . وقد فر زيد بدينه الجديد — أو باستعداده للدين (٢) التفكير الفلسفي)

الجديد — وجعل يلتبس ما يجب عند اليهود مرة ، وعند النصارى مرة ،
حتى استيأس من أولئك وهؤلاء (١)

كيف انتهى زيد إلى حقيقة مذهبه ؟ وماذا كان سبيله إلى
الاطمئنان الروحي ؟

وماذا كان يرى في مشكلة المبدأ ، ومشكلة المصير ، ومشكلة الغاية ؟
عن كل ذلك يصمت التاريخ . . . ولكن الذي لا شك فيه أن زيدا
اطمأنت نفسه إلى منطق أو إلى إلهام فيما يتعلق بما وراء الطبيعة .

ولم يكن زيد الوحيد في جزيرة العرب الذي بحث عن الله ، بل كان
هناك كثير غيره ؛ كان هناك أمية بن أبي الصلت الشاعر المشهور .

وكان حسب ما يروى صاحب الأغاني « قد نظر في الكتب وقرأها ،
ولبس المسوح تعبداً ، وكان ممن ذكر إبراهيم وإسماعيل والحنيفية ، وحرّم
الخمر ، وشك في الأوثان ، وكان محققاً ، واتمس الدين ، وطمع في النبوة :
لأنه قرأ في الكتب أن نبياً يبعث من العرب فكان يرجو أن يكون هو » .

وشعره حافل بذكر الرسل والأنبياء ، والجنة والنار ، والثواب والعقاب ،
حتى لقد قال ابن سلام : « كان أمية كثير العجائب : يذكر في شعره خلق
السموات والأرض ، ويذكر الملائكة ، ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد
من الشعراء » ١

(١) (عن مجلة الهلال سنة ١٩٣٧ م)

ولم يصلنا كل شعره ، ولسكن ما جمعه منه الأستاذ شلتس يدل على
الكثير من مناحيه ؛ ومن شعره الذى يدل على اتجاهه :

ألا أيها الإنسان إياك والرّدى	فأنك لا تخفى من الله خافيا
وإياك لا تجعل مع الله غَيْرَهُ	فأن سبيل الرشد أصبح باديا
رضيت بك اللهم ربا فلن أرى	أدين ألاها غيرك الله ثانيا
أدين لرب يستجاب ولا أرى	أدين لمن لم يسمع الدهر داعيا
وأنت الذى من فضل منّ ورحمة	بعثت إلى موسى رسولا مناديا
فقلت له : يا اذهب وهارون فادعوا	إلى الله فرعون الذى كان طاغيا
وقولا له : أأنت سوّيت هذه	بلا وتدٍ حتى اطمأنت كما هيا
وقولا له : أأنت رفّعت هذه	بلا عمد أرفق إذا بك بانيا
وقولا له : أأنت سوّيت وسطها	منيرا إذا ماجنه الليل هاديا
وقولا له : من يرسل الشمس غُدوة	فيصبحُ ما مسّت من الأرض ضاحيا
وقولا له : من ينبت الحب فى الثرى	فيصبح منه البقل يهتز رايا
ويخرج منه حبه فى رموسه	وفى ذاك آيات لمن كان واعيا
وأنت بفضل منك نجيت يونسا	وقد بات فى أضعاف حوت لياليا
وإنى ولو سبّحت باسمك ربّنا	لأكثر ، إلا ما غفرت ، خطائيا

ويقول مترجمه في دائرة المعارف الإسلامية (١) :

« إنه يمكن قسمة قصائده بحسب موضوعها إلى قسمين كبيرين ، أصغرهما يتكون من قصائد وأبيات قيلت في مدح أشخاص وبخاصة في مدح رجل من أغنياء مكة هو عبد الله بن جدعان ، وهي لا تختلف في جوهرها عن نفاثرها عند غيره من شعراء العرب القدماء ؛ أما القسم الأكبر الذي يبدأ بالقصيدة الثالثة والعشرين من طبعة شلتس فيدل دلالة كاملة على النزعة التي يمكن تسميتها بالحنيفية ، وأساسها القول بإله واحد ، وهو رب العباد ؛ ونرى فيها صوراً شبيهة بالوحى عن مقام الله وملائكته ، وحكايات عن الخلق وآراء تتعلق بيوم القيامة والجنة والنار ، وفيها دعوة إلى عمل الخير وإشارات إلى عبر أخذ بعضها من أخبار العرب عن عاد وثمود ، وبعضها من قصص التوراة عن الطوفان وإبراهيم ولوط وفرعون . وابن أبي الصلت مولع إلى جانب هذا بقص الحكايات على ألسنة الحيوانات . ونلاحظ في شعره أيضاً ذكراً للأعمال السحرية . »

وكان أمية ، كما كان زيد ، يريد دين إبراهيم ، فلم يكن يهودياً ولا نصرانياً .
وبما ثبت هذا في غير لبس ولا إبهام قوله :

✓ كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفة زور

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة العربية ، مادة أمية .

✓ ولما سكنته ، على خلاف ما كنا نتوقع ، قد عادى الرسول ، وحاربه ، فعابت عليه شتموته ، وصح فيه قول رسول الله : « آمن شعره وكفر قلبه » .

ويخيل إلينا أنه قد ندم في آخر حياته ندماً شديداً على موقفه ذلك من الرسول ، فيتمنى أن لو كان - بدل معرفته وعلمه - راعياً في رؤوس الجبال يرعى الوعول ؛ لقد قال ، وهو على فراش الموت هذا الشعر البائس الحزين الرائع :
كل عيش وإن تطاول دهرأ منتهى أمره إلى أن يزولا
ليتني كنت قبل ما قد بدا لي في رؤوس الجبال أرعى الوعولا
أجمل الموت نصب عينيك واحذر غولة الدهر إن للدهر غولا

✓ وكان أبو قيس بن أبي أنس من الخنفاء ، وهو من بني النجار وكان ترهب ولبس المسوح وفارق الأوثان ، وهم بالنصرانية ثم أمسك عنها ، ودخل بيتاً له فاتخذ مسجداً لا يدخله طامث ولا جنب ، وقال أعبد رب إبراهيم . فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أسلم وحسن إسلامه وقال في رسول الله صلى الله عليه وسلم شعراً يمدحه (١) .

✓ ومن الخنفاء خالد بن سنان وهو من بني عبس ، ويقول ابن قتيبة : « وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ذلك نبي أضاعه قومه ... وأتت ابنته رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعتة يقرأ قل هو الله أحد فقالت : كان أبي يقول ذا (٢) » ،

(١) المعارف لابن قتيبة ص ٢٨ . (٢) المعارف لابن قتيبة ص ٢٩ .

بعض من رأى التبريع بالنصرانية :

كانت النزعة إلى الخنيفية شائعة في جزيرة العرب ، ولكن من العرب من رأى الدين بالنصرانية أو اليهودية ، ولكنهم لم يكونوا يدينون بإحديهما إلا بعد أن يجولوا في شعاب التفكير ، ويضلوا في متاهات ما وراء الطبيعة : فيرون بعد بحث وتفكير أن الأسلم التزام دين يأمنون في رحابه من ضلال الأوهام .

ذكر ابن هشام المتوفى بالفسطاط سنة ٢١٨ هـ في سيرته ص ٢٢٧

قال ابن اسحاق : واجتمعت قريش يوما في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ، ويعكفون عنده ويدورون به ، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوما ، فخلص منهم أربعة نفر نجيا ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكنتم بعضكم على بعض ، قالوا : أجل . وهم : ورقة ابن نوفل . . . وعبيد الله بن جحش بن رئاب . . . وكانت أمه أُمَيمة بنت عبد المطلب ، وعثمان بن الحُوَيْرِث ، وزيد بن عمرو بن نفيل . . . فقال بعضهم لبعض : تعلّموا والله ما قومكم على شيء لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم !! ما حَجَرَ نَظِيفُ به ، لا يسمع ولا يبصر ولا يضُر ولا ينفع !! يا قوم ، التمسوا لأنفسكم ديناً فإنكم والله ما أنتم على شيء . ففارقوا في البلدان يلتمسون الخنيفية ، دين إبراهيم .

فأما ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علما من أهل الكتاب .

وأما عبید الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ،
ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة . . . فلما قدمها تنصر . . . وأما عثمان
ابن الحویرث فقدم على قیصر ملك الروم فتنصر ، وحسنت منزلته عنده . . .
وأما زید بن عمرو بن نفیل فوقف فلم يدخل فی یهودیة ، ولا نصرانیة ،
وفارق دین قومه ، فاعتزل الآوثان والمیة والدم والذبايح التي تذبح على
الآوثان ونهى عن قتل المومودة ، وقال : أعبد رب ابراهيم ، وبادی قومه
بعیب ما عم عليه .

كان من هؤلاء ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزی بن قصی ، وهو
عربی أصیل من ذروة بیوتات قریش .

وهو - كما یروی صاحب الأغانی - أحد من اعتزل عبادة الآوثان
فی الجاهلیة ، وطلب الدین وقرأ الکتب وامتنع من أكل ذبائح الآوثان ،
طلب ورقة الدین ولم یکتف فی طلبه باللغة العربیة ، بل لعل اللغة العربیة
إذ ذاك لم تكن تسعفه بما یرید من معرفة ، فتعلم العبرانیة ، وكان یكتب
الكتاب العبرانی فیکتب بالعبرانیة من الانجیل ما شاء الله أن یكتب .

ولم یکن أمر معرفته وعلمه مجهولاً بین قومه ، ولذلك انطلقت خدیجة
بنت خویلد إلیه بالنبی صلی الله علیه وسلم : لتستفسر عما عرض للرسول من
أمر الوحی ، فأفادها وطمانها وتمنی أن لو عاش حتى یرى الرسول قد أمر
بنشر دعوته ؛ لینصره نصرأ مؤزرأ

وكان ورقة شاعراً ناضج التفكير في شعره ومثال ذلك قوله :

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم أنا النذير فلا يغركم أحد
لا تعبدون إلهاً غير خالقكم فإن دَعَوْكم فقولوا بيننا حدّد (١)
سبحان ذى العرش سبحانه أنعوذ به وقبل قد سبح الجودي (٢) والجمد
مُسخر كل ما تحت السماء له لا ينبغي أن يُسأوى ملكه أحد
لا شيء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الإله ويودى المال والولد
لم تغن عن هَرَمزٍ يوماً خزائنه والخلد قد حاولت عاد فما خلّدوا
ولا سليمان إذ دان الشعوب له والجن والأنس تجري بينها البرد (٣)

ويروى أن رسول الله سئل عنه فقال : « قد رأيته في المنام كأن عليه ثياباً بيضاً فقد أظن أن لو كان من أهل النار لم أر عليه البياض » .

لم يكن أمثال ورقة ، وأمثال زيد من النادرين في العرب ، ولم يكونوا يستخفون بأرائهم فكثيراً ما كان يدور النقاش بينهم وبين قومهم فضلاً عن دورانه بين بعضهم وبعض .

ولقد عاب زيد ، فيما يبدو ، ورقة على اعتناقه النصرانية ، وأراد منه التخلي عنها فقال : « أنا أستمع على نصرانيتي إلى أن يأتي النبي الذي تبشرنا به الأحيار » .
وحينما اطمأن زيد إلى التوحيد وأعلن ذلك قال ورقة له :

(١) المنع (٢) الجودي والجمد : جبلان (٣) البرد جمع بريد وهو الرسول

رشدت وأنعمت ابن عمرو وإنما تجنبت تنوراً من النار حاميا
بدينك رباً ليس رب كمثلـه وتركك جَنَانٌ^(١) الجبال كما هيا

(٢)

الحكماء :

كان الطابع العام لهؤلاء الذين ذكرنا هو البحث عن الدين المستقيم ،
والتطلع إلى الهداية السماوية ، وليكن ميدان التفكير الناضج في أرجاء
الجزيرة العربية كان أوسع من أن يكون مقصوراً على هؤلاء .
يقول الشهرستاني : « ومنهم — أى من الفلاسفة — حكماء العرب ،
وهم شردمة قليلة ، لأن أكثرهم حكمتهم فلتات الطبع ، وخطرات الفكر ،
وربما قالوا بالنبوات » .

وحكماء العرب هؤلاء هم العلماء الذين كان يُرجعُ إليهم فيما يعرض
من مشاكل ، وهم في الجملة أعظم العرب حظاً في الثقافة ، وكان مثلهم في الحكمة
مثل حكماء اليونان ، لقد أثرت عنهم الحكم القصيرة التي تركزت فيها التجربة
والحسنة ، مثل : « مقتل الرجل بين فسكتيه » ، « من طلب شيئاً وجدته » ،
ولم يجدده يوشك أن يقع قريباً منه » ، « الحرب مائة » ، « إن المنبت
لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » .

فإذا ما قارنا هؤلاء الحكماء بمن يماثلهم من حكماء اليونان ، وجدنا أنهم
يتشابهون في كثير من النواحي . يقول أفلاطون : (واجتمعوا — أى

(١) جنان الجبال : الذين يأمرُونَ بالفساد من شياطين الإنس أو الجن .

الحكام - في دلف ، وأرادوا أن يقدموا لأبولون في هيكله بواكير حكمهم ، فاختصوه بالآيات التي يرددها الناس الآن مثل : « إعرف نفسك ، و لا تسرف ، و الصلاح عسير ،) فكانوا مصلحين ومشرعين ولم يكونوا فلاسفة بمعنى الكلمة ^(١) . وكذلك كان حكماء العرب .

✓ وقد روى عن حكماء العرب بعض الآراء التي تدل على تفكيرهم : كان منهم عامر بن الظرب ، ومن كلامه في استدلاله على وجود الله وعلى نصريته للكون : « إني ما رأيت شيئاً قط خلق نفسه ، ولا رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً ، ولا جائياً إلا ذاهباً ، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء .

✓ ومن حكماء العرب أكتم بن صيني بن ربّاح وكان من حديثه - كما ذكر الألوسي - أنه لما ظهر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة ودعى إلى الاسلام بعث أكتم ابنه حبيشاً ، فأناه بخبره . فجمع بني تميم وقال : يا بني تميم ، لا تحضروني سفياً : فإنه من يسمع يخل ^(٢) ، إن السفية يوهن من فوقه ويثبط من دونه . لا خير فيمن لا عقل له . كبرت سني ودخلتني ذلة فإذا رأيتم مني حسناً فاقبلوه ، وإن رأيتم مني غير ذلك فقوموني أستقم . إن ابني شافه هذا الرجل مشافهة ، وأناثي بخبره ، وكتابه يأمر فيه

(١) تاريخ الفلاسفة اليونانية ليوسف كرم ص ٨

(٢) « من يسمع أخبار الناس ومعاييرهم يقع في نفسه عليهم المنكره » عن مجمع الأمثال للبيداني .

بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى وخلع الأوثان وترك الحلف بالنيران ، وقد حَلَفَ (عَرَفَ) ذوو الرأى منكم أن الفضل فيما يدعو إليه ، وأن الرأى ترك ما ينهى عنه . إن أحق الناس بمعونة محمد ومساعدته على أمره أنتم ، فإن يكن الذى يدعو إليه حقاً فهو لكم دون الناس ، وإن يكن باطلا كنتم أحق الناس بالكف عنه والستر عليه ، وقد كان مُنْقَضُ نجران يحدث بصفته ، وكان سفيان بن بجاشع يحدث به قبله وسمى ابنه محمداً ، فكونوا فى أمره أولاً ولا تكونوا آخراً ، اتتوا طائعين قبل أن تأتوا كارهين .

إن الذى يدعو إليه محمد لو لم يكن ديناً كان فى أخلاق الناس حسناً . أطيعوني واتبعوا أمرى أسأل لكم أشياء لا تنزع منكم أبداً ، وأصبحت أعزَّ حَيٍّ فى العرب وأكثرهم عدداً وأوسعهم داراً ، فإنى أرى أمراً لا يجتنبه عزيز إلا ذل ، ولا يلزمه ذليل إلا عز . إن الأول لم يدع للآخر شيئاً . وهذا أمر له مابعد من سبق إليه غمر المعالى واقتدى به التالى . والعزيمة حزم والاختلاف عجز . فقال مالك بن نويرة : قد خَرَفَ شيخكم . فقال أكرم : ويل للشجى من الخلى ، ولهنى على أمر لم أشهده ولم يسبقنى . فذهب مثلاً .

وكان منهم قس بن ساعدة الذى يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم
كانى أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أورك ، وهو يتكلم بكلام عليه

حلاوة ، ما أجدني أحفظه ، وخطبته بسوق عكاظ مشهورة : « أيها الناس
اسمعوا ووعوا ... الخ » .

ودليله على وجود الله أيضاً مشهور : إنه يستدل بالآثر على المؤثر .
وهو يصف الإله فيقول : كلا بل هو الله إله واحد ، ليس بمولود
ولا والد ، أعاد وأبدى ، وإليه المآب غداً .

ثم ينشد :

يا بآبا كي الموت والاموات في جدث عليهمو من بقايا بزهم خرق
دعهم فإن لهم يوماً يصاح بهم كما ينبه من نوماته الصعق
وأما عبد المطلب ، جد الرسول ، وهو من حكماء العرب المشهورين ،
فقد رويت عنه سنن أقر القرآن أكثرها : كالمنع من نكاح المحارم ، وقطع
يد السارق والنهي عن قتل الموءودة (١) .

ولم تكن الناحية الأخلاقية بمهمة لدى الشعراء ، وزهير بن أبي سلمى
يتحدث عنها في كثير من شعره ، وهو القائل :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم

ليخفي ، ومهما يكتمن الله يعلم

يؤخر ، فيوضع في كتاب فيدخر

ليوم الحساب ، أو يعجل ، فينقم

(١) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ١١٠

ويقول في ضرر الحرب والدعوة إلى السلم :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المَرْجَمُ (١)
 متى تبعوها تبعوها ذميمةً وَتَضَرَّيْ إِذْ ضَرَّيْتُمُوها فَتَضَرَّمْ (٢)
 فتعركم عرك الرحي بِشِفَا لَهَا وَتَلْقَحْ كِشَافاً ثُمَّ تَنْتِجْ فَتَنْتِجْ (٣)
 فتنتج لكم غلماناً أشامَ كلهم كَأَحْمَرِ عَادَ ، ثُمَّ تَرْضِعْ فَتَنْفِظِمْ (٤)
 فَتُخَلِّلْ لَكُمْ مَا لَا تُغِلُّ لَاهِلَهَا قَرَى بِالْعِرَاقِ مِنْ قَسْفِيزٍ وَدِرْهَمِ (٥)

(١) المَرْجَمُ من الحديث المقول بطريق الظن ، لا عن تحقيق .
 أى : وما حديثي عن الحرب وتخويفكم ويلاتها بالحديث المفترى ، بل أتم
 قد علمتم وبل الحرب ، وذقتموها .

(٢) متى تهيجوا الحرب تهيجوها مذمومة ويشتد حرها وتضرم نارها .

(٣) الثفال : جلدة توضع تحت الرحي . كِشَافاً مَنَتَيْنِ متواليتين . تَنْتِجْ :
 تلد توأمين والمعنى : إذا أثرتم الحرب طحنتكم طحن الرحي ، وتدوم زمناً
 طويلاً في شدة ، وتسكون كالناقة التي تحمل مرتين في عامين متتالين وتلد
 في كل منهما توأمين .

(٤) إن أمر هذه الحرب بطول ، وتنتج لكم غلمان مثلهم في الشؤم
 كمثل عاقر ناقة صالح عليه السلام وتعيش هذه الغلمان حتى ترضع وتنفطم ،
 يريد بذلك أن يكنى عن طول الحرب وشرورها .

(٥) وسوف لا تُغِلُّ الحب الذي يكال بالقفيز أو يباع بالدرهم ،
 إذ هي لا تفتج إلا الموت والهلاك .

(٣)

رأى الخمس :

وإذا كان ما سبق يعتبر من الجوانب المحدودة رغم كثرته ...
فإن قريشاً قد غمرتها نزعة روحانية، ففكرت في أمر الدين وقداسته ، والبيت
وحرمته ، وبعد تأمل وترو: ابتدعت رأى الخمس ، والخمس جمع أخمس ،
والأخمس ، كما يقول صاحب المختار ، هو : الشديد الصّلب في الدين والقتال ؛
ولم يكن رأى الخمس هذا الذى ابتدعوه إلا تحمساً دينياً ، وعاطفة روحانية
قوية ، وكانوا يذهبون فيه - كما يقول السهيلي - « مذهب التّأله والتزهد » .
وكان مثلهم في ذلك مثل من قال الله فيهم « ورهبانية ابتدعوها » .

✓ قال ابن إسحاق : « وقد كانت قريش — لا أدري قبل عام الفيل
أم بعده — ابتدعت رأى الخمس رأياً رأوه وأداروه ؛ فقالوا : نحن
بنو إبراهيم ، وأهل الحرم ، وولاة البيت ، وقطّان مكة وساكنوها ، فليس
لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ، ولا تعرف له العرب مثل
ما تعرف لنا ، فلا تعظّموا شيئاً من الحل كما تعظّمون الحرم فإنكم إن فعلتم
ذلك استخف العرب بحرمتكم ، وقالوا : قد عظموا من الحل مثل ما عظموا
من الحرم .

فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها ، وهم يعرفون ويقولون بأنها

من المشاعر والحج ودين إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها ، وأن يضيفوا منها ، إلا أنهم قالوا : نحن أهل الحرم ، وليس ينبغي لنا أن نخرج من الحرم ولا نعظم غيرها كما نعظمها نحن الخمس ، والخمس أهل الحرم . ١٥ ،

ولقد كانوا في سبيل ذلك يشقون على أنفسهم ، ويشقون على غيرهم ، فيحرمون على أنفسهم أشياء ويفرضون عليها أخرى وكذلك كانوا يفعلون بالنسبة للحاج والمعتمر .

قال ابن إسحاق : ثم ابتدعوا في ذلك أموراً لم تكن لهم ، حتى قالوا : لا ينبغي للخمسة أن يأتقنوا الأقط ولا يسلسوا السمن وهم حرم ، ولا يدخلوا بيتاً من شعر ، ولا يستظلوا ، إن استظلوا ، إلا في بيوت الأديم^(١) ما كانوا حُرماً .

ثم رفعوا في ذلك فقالوا : لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاء به معهم من الحل إلى الحرم ، إذا جاءوا حجاً أو عمارة ، ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الخمس ، فإن لم يجدوا منها شيئاً طافوا بالبيت عراة ، فإن تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ، ولم يجد ثياب الخمس ، فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل ،

(١) بيوت الأديم : الأخبية التي تصنع من الجلد .

ألقاها إذا فرغ من طوافه، ثم لم يلتفت بها، ولم يمساها هو ولا أحد غيره أبداً... فحملوا على ذلك العرب، فدانت به، ووقفوا على عرفات، وأفاضوا منها، وطافوا بالبيت عراة، أما الرجال فيطوفون عراة، وأما النساء فتضع إحداهن ثيابها كلها إلا درعاً مفسراً جاً عليها ثم تطوف فيه، وكان الغرض من طوافهم عراة، إن لم يجدوا ثياب أحسن، هو طرح الثياب التي اقترفوا فيها الذنوب فقد تدنست بما أتوا من معصية.

حلف الفضول :

هذه العاطفة الدينية تبعها — كلازم من لوازمها — عمل أخلاقي كريم قد بلغ من السمو حداً لا يكاد يحدث في التاريخ إلا نادراً : إننا نريد أن نتحدث عن حلف الفضول . قال صاحب الروض الأنف :

✓ وكان حلف الفضول ^(١) هذا قبل البعث بعشرين سنة، وكان أكرم

(١) يذكرون في سبب تسمية هذا الحلف بهذا الاسم: أن جرهما في الزمن الأول، قد سبقت قريشاً إلى مثل هذا الحلف، فتحالف منهم ثلاثة هم ومن تبعهم، أحدهم : الفضل بن فضالة، والثاني : الفضل بن وداعة، والثالث : فضيل بن الحارث، وقيل : بل هم : الفضيل بن شراعة، والفضل بن وداعة، والفضل بن قضاة، فلما أشبه حلف قريش هذا حلف هؤلاء الجرهميين سمي حلف الفضول .

وقيل : بل سمي كذلك لأنهم تحالفوا أن ترد الفضول على أهلها، وألا يغزو ظالم مظلوماً .

حلف وأشرفه . وأول من تكلم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب ، وكان
 سببه أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاصي بن وائل ،
 وكان ذا قدر بمكة وشرف ، فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الزبيدي
 الأحلاف : عبد الدار ومخزوماً وجميع وسهما ، وعدى بن كعب ، فأبوا
 أن يعينوه على العاصي ، وزبروه (زجروه) . فلما رأى الزبيدي الشر ،
 أوفى على أبي قبيس عند طلوع الشمس ، وقرش في أندية حول الكعبة ،
 فصاح بأعلى صوته :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته بطن مكة نائى الدار والنفر
 ومحرم أشعث لم يقض عمرته يا للرجال وبين الحجر والحجر
 إن الحرام لمن تمت كرامته ولا حرام لشوب الفاجر الغدر

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب ، وقال : ما لهذا مترك ، فاجتمعت
 هاشم وزهرة وتيم بن مرة في دار ابن جدعان ، فصنع لهم طعاماً وتعاهدوا ،
 وكان حلف الفضول ، وكان بعدها أن أنصفوا الزبيدي من العاصي (١) .
 ويقول ابن هشام راوياً عن ابن إسحاق : « تداعت قبائل من قرش
 إلى حلف ، فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جندعان بن عمر . . . أشرفه
 وسنه ، فكان حلفهم عنده ، بنو هاشم ، وبنو عبد المطلب ، وأسود
 ابن عبد العزى ، وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة ، فتعاهدوا وتعاهدوا

(١) « عن الروض الأنف » .

على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته ، فسمت قریش ذلك الحلف حلف الفضول ، .

كان بحق — كما يقول السهيلي — أكرم حلف وأشرفه ، ومن أجل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأنه : لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لى به حمراً التعم ، ولو أدعى به في الاسلام لأجبت .

(٤)

الفكرة العامة عن العرب ونصيحهم :

ومع كل ذلك فإنه لا يخفى علينا أن الفكرة العامة عن العرب : هى أنهم كانوا فى تدهور خلقى ، وفى تدهور دينى لا حد لها .

لقد كانوا يشربون الخمر .

وكانوا يعبدون الأصنام ، كانوا يعبدون قطعاً من الحجارة منحوتة بأيديهم ويدعونها آلهة ويعبدونها .

وهل من دليل على فتورهم الدينى أوضح من تركهم أبرهة يسير إلى البيت الذى يقدر سونه ويعظمونه لهدمه ، بدل أن يمتشقوا الحسام لصدده ؟ إنهم تركوه وما يريد ، دون أن يثيروها عليه شعواء .

هذه شبهات تعلق بالذهن وتثار فى كل آونة ، ولا بد من أن نتحدث عنها .

أما الخمر فقد تركها طائفة في الجاهلية ، ودعت إلى تركها ، ومنهم قيس ابن عاصم التميمي ، وصفوان بن أمية الكنانى ، وعفيف بن معد يكره الكندى ، وغيرهم . وما يقول قيس فيها :

وجدت الخمر جاحدة وفيها خصال تفضح الرجل الكريم
إلى آخر القصيدة .

أما الأصنام فلم يكن العرب يعبدونها لذاتها ، ولم تكن عندهم مجرد قطعة من حجر : وإنما اتخذوها على (شكل الهياكل العلوية ^(١)) فكانوا يعبدونها باعتبارها رمزاً للهياكل العلوية ، وكانوا يعبدونها لتقربهم إلى الله زانق .

أما مسألة تركهم أبرهة فإن الصورة التى عند العامة فى هذا الأمر غير صحيحة ، وللحق والتاريخ نقول : إن أبرهة أراد أن يصرف العرب عن الحج إلى بيت الله الحرام ، ومن أجل ذلك « بنى — كما يقول ابن هشام — القلبيس بصنعاء ، فبنى كنيسة ^(٢) لم ير مثلها فى زمانها بشيء من الأرض ،

(١) الشهرستانى .

(٢) سميت القليس لارتفاع بناءها وعلوها وكان أبرهة ينقل إليها الرخام المنجذع والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس ، صاحبة سليمان عليه السلام وكان من موضع هذه الكنيسة على فراسخ . وكان يستخدم فى سبيل ذلك مع أهل اليمن العنف الذى لا حد له حتى لقد كان يقطع يد العامل إذا طلعت عليه الشمس قبل أن يأخذ فى عمله .

ثم كتب إلى النجاشي : إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها ملك قبلك ولست بمتمته حتى أصرف إليها حج العرب .

وتحدثت العرب بكتاب أبرهة إلى النجاشي ونار بهم الغضب :

« نخرج رجل من كنانة حتى أتى القليس فقعدها فيها أي أحدث فيها : يريد أن يعرف أبرهة أنها ليست لذلك بأهل . وكان ما فعل هذا السكناني يعبر عما كان يريده الكثيرون من العرب إذ ذاك ، ولسكنه أغضب أبرهة غضباً لا حد له ، وحلف ليهدم البيت الحرام . وندع بعد ذلك ابن هشام يتحدث :

« وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفضعوا به ، ورأوا جهاده حقاً عليهم ، حين سمعوا أنه يريد هدم الكعبة ، بيت الله الحرام .

فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر ، فدعى قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة ، وجهاده عن بيت الله الحرام ، وما يريد من هدمه وإخراجه ؛ فأجابه إلى ذلك من أجابه ، ثم عرض له فقاتله ، فهزم ذو نفر وأصحابه . . .

ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له ، حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلي خثعم : شهران وناهس ومن تبعه من قبائل العرب ، فقاتله فهزمه أبرهة . . .

فلما نزل أبرهة المغمس (بالقرب من مكة) . . . همت قريش وكنانة

وهذيل ، ومن كان بذلك الحرم بقتاله ، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به ، فتركوا ذلك .

نرى من هذا أن العاطفة الدينية عند العرب لم تكن كما يتصوره البعض فاترة ضعيفة .

(٥)

الأدبانه في جزيرة العرب :

على أن الذي ينبغي أن يلاحظ أن جزيرة العرب لم تكن كلها وثنية : كانت النصرانية في ربيعة وغسان ، وبعض قضاة ، وكانت اليهودية في حمير وبني كنانة وبني الحارث ابن كعب وكندة ، وكانت المجوسية في تميم : منهم زرارة ، وحاجب ابن زرارة ومنهم الأقرع بن حابس ، كان مجوسياً ، وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الحيرة ^(١) .

ومن العرب من كان يدين بالرجعة ، يقول صاحب لسان العرب : والرجعة مذهب قوم من العرب في الجاهلية معروف عندهم .

ولم يكن القول بالجبر أو القول بالاختيار بعيداً عن العقلية العربية : يقول يحيى بن متى راوية الأعشى : كان الأعشى قدرياً وكان ليبد مثبِتاً ، قال ليبد : من هداه سبيل الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضل

(١) ابن قتيبة : كتاب المعارف .

وقال الأعشى :

استأنز الله بالوفاء وبالعد ل وولى المسلامة الرجل
والحق أن جزيرة العرب لم تكن — كما يُظن عادة — بمنأى عن
التفكير الدينى القوي إنكاراً وجحوداً ، أو إثباتاً وتأيداً ، وسرى فيها
بعد إيضاحا لجوانب أخرى من تفكيرهم الدينى عند ما نتحدث عن موقف
القرآن منهم .

ونريد الآن أن نذكر آراء بعض الكتاب فى شأن العرب : نستأنس
بها فيما ذكرنا .

(٦)

بعض الاسراء عن العرب :

يقول الجاحظ : « وذكر الله تعالى حال قريش فى بلاغة المنطق
ورجاجة الأحلام ، وصحة العقول . وذكر العرب وما فيها من الدهاء
والنكرام^(١) ، والمسكر ، ومن بلاغة الأسنة واللدد عند الخصومة فقال :
« فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالأسنة حداد » . ثم ذكر خلاصة أسنتهم
واستألتهم الاسماع بحسن منطقهم فقال : « وإن يقولوا تسمع لقولهم » ،
ثم قال : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، مع قوله :
« وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويملك الحرث والنسل^(٢) » .

(١) النكرام : الدهاء والفتنة . (٢) البيان والتبيين ج ١ ص

وقال جرجى زيدان فى تاريخ آداب اللغة العربية : « وقد يتبادر إلى الذهن أن أولئك البدو كانوا أهل جهالة وهمجة لبعدهم عن المدن وانقطاعهم للغزو والحرب ، ولكن يظهر مما وصل إلينا أنهم كانوا كبار العقول ، أهل ذكاء ونباهة واختبار وحنكة ، وأكثر معارفهم من ثمار قرائحهم ، وهى تدل على صفاء أذهانهم ، وصدق نظرهم فى الطبيعة وأحوال الانسان مما لا يقل عن نظر أعظم الفلاسفة : فإن قول زهير بن أبى سلى فى معلقته : « رأيت المنايا خبط عشواء ، إلى قوله :

« وإن خالها تخفى على الناس تعلم ^(١) » لا يقل شيئاً عن أحكام أكابر

الفلاسفة ، ج ١ ص ٢٩ .

(١) نذكر هنا الآيات التى أشار إليها الكاتب ، نقلاً عن كتاب المعلقات ،

ليرى القارىء بنفسه مبلغ ما وصل إليه زهير من عمق :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش	ثمانين حولاً لا أبالك يسأم
وأعلم ما فى اليوم والامس قبله	ولكننى عن علم ما فى غد عم
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب	تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم
ومن لم يصانع فى أمور كثيرة	يضرّس بأنياب ويوطأ بمسنّم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه	يفره ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله	على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن يؤف لا يذمم ومن يهد قلبه	إلى مظمن البر لا يتجمجم =

ويقول فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر السابق :
« في الشعر الجاهلي معاني سامية وحكمة صادقة ، ومن يقرؤه خالي الذهن
من كل ما قيل فيه ، يقضى العجب من ذكاء منشئيه وسعة خيالهم ، وأقصائهم
النظر في تأليف المعاني والتصرف في فنون الكلام . »

وكما اعتمد الجاحظ على القرآن فيما ذكرناه له من رأى سابق
فإن الدكتور طه حسين يرى أن القرآن أصدق مرآة للحياة الجاهلية .
« وهذه القضية — كما يقول الدكتور طه — غريبة حين تسمعها ، ولكنها
بديهية حين تفكر فيها قليلا . فليس من اليسير أن نفهم أن الناس قد أعجبوا
بالقرآن حين تليت عليهم آياته إلا أن تكون بينهم وبينه صلة : هي هذه
الصلة التي توجد بين الأثر الفني البديع وبين الذين يعجبون به حين يسمعون
أو ينظرون إليه ؛ وليس من اليسير أن نفهم أن العرب قد قاوموا القرآن

ومن هاب أسباب المنايا يئلنه	وإن يرق أسباب السماء بسلم
ومن يجعل المعروف في غير أهله	يكن حمده ذمّا عليه ويندم
ومن يعص أطراف الزجاج فإنه	يطبع العوالي رُكبت كلّ لهذم
ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه	يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن يعترب يحسب عدواً صديقه	ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومهما تسكن عند امرئ من خليفة	وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وناهضوه وجادلوا النبي فيه، إلا أن يكونوا قد فهموه ، ووقفوا على أسرارهِ ودقائقهِ . . . وفي القرآن رد على الوثنيين فيما كانوا يعتقدون من الوثنية ، وفيهِ رد على اليهود ، وفيهِ رد على النصارى ، وفيهِ رد على الصابئة والمجوس . وهو لا يرد على يهود فلسطين ، ولا على نصارى الروم ومجوس الفرس ، وصابئة الجزيرة وحدهم ، وإنما يرد على فرق من العرب كانت تمثلهم في البلاد العربية نفسها . ولولا ذلك لما كانت له قيمة ولا خطر ، ولما حفل به أحد من أولئك الذين عارضوه وأيدوه ، وضحوا في سبيل تأييده ومعارضته بالأموال والحياة . . . ولكن القرآن لا يمثل الحياة الدينية وحدها وإنما يمثل شيئاً آخر غيرها لا نجده في هذا الشعر الجاهلي : يمثل حياة عقلية قوية ؛ يمثل قدرة على الجدل والخصام أنفق القرآن في جهادها حظاً عظيماً ، أليس القرآن قد وصف أولئك الذين كانوا يجادلون بقوة الجدل ، والقدرة على الخصام ، والشدة في المحاوره ؟ وفيهم كانوا يجادلون ويخاصمون ويحاورون ؟ في الدين وفيما يتصل بالدين من هذه المسائل المعضلة التي ينفق الفلاسفة فيها حياتهم دون أن يوفقوا لحلها : في البعث ، في الخلق ، في إمكان الاتصال بين الله والناس ، في المعجزة وما إلى ذلك . .

ويمضي الدكتور طه حسين في الحديث عن تصوير القرآن للامة العربية من الناحية الاقتصادية ومن ناحية اتصال العرب بغيرهم من الأمم ، ويتمشى مع القرآن في أن العرب لم يكونوا كلهم سنناً واحداً بل كان فيهم الأعراب

في جفوتهم وغلظتهم وإمعانهم في الكفر والنفاق وقلة حظهم من العاطفة
الرقية التي تحمل على الإيمان والتدين : « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً
وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله » .

ونعود إلى الجاحظ في مقارنة له بين العرب في عصرهم الجاهلي وغيرهم
من الأمم وهذه المقارنة قد اعتقد قوم أنها مقارنة بين العرب كجنس
« أى بين العرب في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم » ، وبين غيرهم ، ولكن ذلك
خطأ واضح فالجاحظ يقارن بين العرب في طور من أطوارهم هو الطور
الجاهلي فحسب وبين غيرهم ، ولذلك لم يتحدث في هذه المقارنة عن الدين ،
أو فلسفة السكندى وهو عرب صميم ، أو فلسفة المعتزلة فقد كانوا منها على
حظ . وافر ، ولم يتحدث عن تشريع أب حنيفة أو الشافعي وقد كان في ذلك
- لو أراد - ميدان من أخصب الميادين لتأييد رأيه .

يقول الجاحظ : « إن الهند لهم معان مدونة ، وكتب مجلدة ، لا تضاف
إلى رجل معروف ، ولا إلى عالم موصوف ، وإنما هي كتب متوارثة
وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة . ولليونان فلسفة ومنطق ، ولكن
صاحب المنطق نفسه بكيء اللسان ولا موصوف بالبيان ؛ وفي الفرس
خطباء ، إلا أن كل كلام للفرس وكل معنى للعجم فإنما هو عن طول فكرة
وعن اجتهاد وخلوة ؛ وكل شيء للعرب فإنما هو بديهية وارتجال وكأنه إلهام ،
وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا إجابة فكر ولا استعانة ، وإنما

هو أن يصرف وهمه إلى الكلام فتأتيه المعاني أرسالا ، وتنثال عليه
الألفاظ انثيالا . .

من كل ما سبق نرى أن العرب لم يكونوا كما يظن كثير من الناس
أهل جهل مطبق أو ضلالة شاملة ، وإنما كانوا أصحاب شعر وحكمة ودين ،
كان فيهم بلاغة المنطق ، ورجاحة الأحلام ، وصحة العقول ، وشعور ديني قوى
يضحون في سبيله بأموالهم وأنفسهم .

(٧)

العرب مسبب ما نعتقد :

أما ما نريد أن ننتهي إليه من كل ما سبق فهو الرأي الذي رآه فضيلة
المرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق في كتابه تمهيد لتاريخ
الفلسفة الإسلامية : « ومهما يكن من أمر العرب عند ظهور الدين المحمدي ،
فإنهم لم يكونوا في سذاجة الجماعات الإنسانية الأولى من الناحية الفكرية التي
تهمنا ؛ يدل على ذلك ما عرف من أديانهم ، وما روى من آثارهم الأدبية ^(١) . »

وكان العرب عند ظهور الإسلام « يتشبهون بأنواع من النظر العقلي
يشبه أن تكون من أبحاث الفلسفة العلمية لاتصالها بما وراء الطبيعة من
الالوهية وقدم العالم أو حدوثه ، والأرواح والملائكة والجن والبعث
ونحو ذلك ^(٢) . »

(٨)

المرهنا ولا يمثلونه الأمانة :

ومع ذلك فإننا نعلم حق العلم أن الأكترية العظمى فى جزيرة العرب كانت من البدو الرحل الذين شغلهم البحث وراء لقمة العيش عن التفكير فى الدين وفيما وراء الطبيعة، وليس من الطبيعى أن تتطلب من شخص يقامى فى عنف شظف الحياة أن يفكر تفكيراً مجرداً . إن الأغلبية العظمى من جزيرة العرب صحراء قاحلة ، وليس لها كنيها استقرار ما ، وليس بها أمن مستتب ، والحروب والغارات فى جبالها ووهادها لا تكاد تنقطع : فمن الطبيعى أن لا يكون عند هؤلاء أوقات فراغ يقضونها فى التفكير فيما وراء الطبيعة .

ولكن إذا كنا لا نتخذ من عقلية الفلاح الحافى القدمين الذى قوس انحناؤه على الفأس ظهره مثالا لحضارة المصريين وثقافتهم سواء كان ذلك فى العصر القديم أو فى العصر الحديث ، وإذا كنا لا نتخذ من الفرنسى الريفى الجاهل مثالا لحضارة فرنسا وثقافتها فإنه من غير الطبيعى أن يكون البدو الرحل مقياسا للثقافة العربية فيما قبل الإسلام .

الفصل الثاني

القرآن

(١)

وصف القرآن :

كانت جزيرة العرب — كما تحدثنا سابقاً — تعج بمختلف الآراء الدينية . كان فيها النصرانية واليهودية والحنفاء ، وكان فيها الزندقة ، والدهرية ، ومن ينكرون البعث ، ومن ينكرون إرسال الرسل ، وكان فيها من يقول بالرجعة ، ومن يقول بالجبر ، ومن يقول بالاختيار ، كان فيها توحيد وإلحاد ومؤمنون ومشركون ، ولكن هؤلاء وأولئك كانوا جميعاً ينتظرون بارقة تشرق عليهم فتبديد حيرتهم وتحسم ما بينهم من جدل واختلاف .

في هذه الآونة قام رسول الإسلام بدعوته . ودعوته لم تنشأ — كما يقرر — عن تفكير إنساني شخصي وإنما هي وحي أنزله الله عليه . وهي معصومة : لأنها وحي ، إنها معصومة عن التخطئ في الآراء ، معصومة عن ضلالات الأوهام ، معصومة عن متاهة الخيال . والقرآن وهو كتاب المقدس ، كتاب أحكت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، وهو كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ولقد

(١) من مصادر هذا الفصل : القرآن الكريم . والكشاف للزحشرى . والسكندى لأبي ريدة .

قال رسول الله في وصفه كما روى عن علي رضي الله عنه : « عليكم بكتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ؛ هو حبل الله المتين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ؛ هو الذي لا يزيغ به الأهواء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ؛ من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن خاصم به أفلح ، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم » هـ .

وقد وصل إلينا القرآن بطريق التواتر بحيث لا يمكن الشك مطلقاً في أنه وصل إلينا كما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم دون زيادة أو نقص . والمستشرقون — رغم تحامل بعضهم على الإسلام — لا يجدون مطعناً صحيحاً من تلك الجهة قط . ولقد قال المستشرق الفرنسي الأستاذ ديومبين ، بحق ، في كتابه عن الإسلام : إن المنصف لا مناص له من أن يقر بأن القرآن الحاضر هو القرآن الذي كان يتلوه محمد صلى الله عليه وسلم .

(٢)

السبب في أنه مهمة الرسول كانت شاقة :

ومع استشراف نفوس العرب إلى هاد يقودهم إلى السبيل السوى فإن مهمة الرسول لم تكن سهلة ميسورة : ذلك أن النفوس إذا ألفت شيئاً فترة طويلة من الزمن لم يكن من السهل انصرافها عنه . والإلف —

لا العقل ولا المنطق — هو الذى كان يعرقل دائماً عمل المصلحين خلال التاريخ .

وكان التنافس بين الأسر فى قبيلة واحدة ، وبين القبائل المختلفة ، من العوامل أيضاً التى دفعت الكثيرين إلى المعارضة .

ورأى اليهود أن اعتزازهم بدينهم سيذهب إذا انتشر الدين الجديد .

ورأى النصارى أن مصير دينهم ، هو الآخر ، الاندثار .

وضاق تفكير طائفة كبيرة من العرب فلم يروا العظمة إلا فى الثروة ، ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم ثرياً فقالوا : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .

وتضامنت عوامل الشر هذه كلها ، وتآلبت ، وأرادت — طيلة مدة الدعوة — القضاء عليها .

(٣)

✓ القيمة الذاتية للدعوة الإسلامية :

ولكن الدعوة الإسلامية كانت تحمل فى طياتها من القيمة الذاتية ما يفرضها ، ويكتب لها الانتشا والسيادة :

إنها تمتاز عن النصرانية المنتشرة إذ ذاك بنظام اقتصادى خلت منه الأنانية ، وبمنطق عقلى لا يوجد فيما كان مأثوراً حينئذ من كلام

السيد المسيح عليه السلام . ثم هي تصحيح للمسيحية نفسها التي كانت موجودة
إذ ذاك محرقة ، كما سنرى فيما بعد .

وهي تمتاز عما كان موجوداً إذ ذاك من اليهودية بما فيها من بساطة ،
ونضرة ، وتنزيه لله ورسله وأنبيائه ، لا يوجد ما يماثله في العهد القديم .
ثم هي رجوع باليهودية إلى الحق قبل أن يحرفها ذووها .

وهي هداية للحنفاء إلى دين إبراهيم الذي بتطلعون إليه .

ثم هي معصومة وليست رأياً يجوز بالبحث أن يكون وهما من الأوهام .
وهي بعد كل ذلك نظام كامل للحياة الإنسانية : فيها العقيدة ، وفيها
التشريع ، وفيها الأخلاق : إنها ترضى العقل وترضى الوجدان .

(٤)

وسائل الدعوة لهداية العرب :

ولسكن العرب قابلوها بصراع . فاتخذت الدعوة الإسلامية من أجل
هدايتهم أحكم الوسائل .

نبتهم إلى أنه ليس من المنطق أن يكون الإللف ، وأن تكون العادة
أو العرف ، مقياساً للحق ؛ فليس من المنطق إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله
أن يقولوا « بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » : لأنه من الجائز أن يكون
آباؤهم « لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » ، وليس من المنطق أن يقولوا
« إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » ، وسخر القرآن بالذين

بالذين حرموا على أنفسهم مزية الفهم والتبصر ، فقال في أسلوب لاذع :
« مثل الذين حَسَلُوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ، » .

ثم أضاف الإسلام إلى ذلك تقرير المسؤولية الفردية ، لِيَجْتَنَّبَ بذلك كل محاولة من الفرد لإلقاء التبعة على الجماعة ، أو على البيئة ، أو على الآباء والرؤساء : « وألا تزر وازرة وزرة أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ،
« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

ثم صرح في وضوح واضح ، بالمسؤولية ، فيما يتعاق بالآراء خاصة ،
ورتب العقاب الشديد على من قلده غيره في ضلاله وأهوائه فقال تعالى :

« وقال الذين كفروا لن تؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ،
ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يُرجع بعضهم إلى بعض القول ؟
يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : لولا أتمم لكتنا مؤمنين سبأ : (٣١)
« وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا : أنحن صددناكم عن الهدى
بعد إذ جامكم ؟ بل كنتم مجرمين سبأ : (٣٢) »

« وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليل والنهار
إذ نامرونا أن نكفر بالله ، ونجعل له أندادا ؛ وأسروا الندامة لما رأوا
العذاب ، وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا ؛ هل يحزون إلا ما كانوا
يعملون ؟ ، سبأ : (٣٣) »

وإذا كان الإسلام قد قرر المسؤولية الفردية — أعنى أن كل إنسان مسئول عن عمله — فإنه مع ذلك لم يخل الفرد من المسؤولية بالنسبة لغيره : فالرسول يمثل الجماعة الإنسانية بسفير على سفينة أخذ بعضهم في إفسادها؛ فإن أخذوا على يديه نجا ونجوا، وإن تركوه هلك وهلكوا^(١). ويقول الله تعالى: «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة»، ويقول في عنف عنيف: «يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة، عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون»، روى أن عمر رضى الله عنه قال حين نزلت هذه الآية: «يا رسول الله نقي أنفسنا فكيف لنا بأهلينا؟»

فقال عليه الصلاة والسلام: «تنهوهن عما نهاكم الله عنه وتأمروهن بما أمركم الله فيكون ذلك وقاية بينهن وبين النار»، على أن الرسول صلى الله عليه وسلم يصور هذا النوع من المسؤولية

(١) عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم: فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم تؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً، البخارى وغيره.

تصويراً جميلاً في غير ما حديث : إنه يصور الأمة في توادها ، وتراحمها ،
بجسم : إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

وهو يقول في روعة أخاذه : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ،
ثم يفصل هذا الإجمال ويضرب بعض الأمثلة : « فالإمام راع ومسئول عن
رعيته ، والرجل في بيته راع ومسئول عن رعيته ، والزوجة راعية في بيت
زوجها ومسئولة عن رعيته ، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن
رعيته ، فكلكم راع ومسئول عن رعيته » .

إذاً الآباء والأجداد ليسوا مقياس الحقيقة ، وكذلك العرف والمادة .
والفرد مسئول عما يفعل . وكل إنسان مأمور بأن يصلح من أمر الآخرين .
في هذا الجو أخذ محمد صلى الله عليه وسلم بنشر دعوته .

(٥)

✓ الدعوة الإسلامية : دعوة موحدة

وهي دعوة موحدة لا مفرقة ، إنها دعوة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى
عليهم السلام : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذي أوحينا إليك ،
وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .
وعلام الاختلاف والإسلام دعوة لا تهدف إلا إلى عبادة الله ، وعدم
الشرك به ، وعدم اتخاذ أرباب من دونه :

✓ « قل: يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم: ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا: اشهدوا بأنا مسلمون » .

✓ هذه الدعوة الإسلامية، التي هي دعوة الرسل من قبل، تقرر أصولاً في ناحية العقيدة، وشعائر للعبادة، ومبادئ في القانون، وقواعد للأخلاق .

والذي يعنينا هنا على الخصوص هو العقيدة .

(٦)

إثبات الرسالة

إن أشق مرحلة يصادفها كل رسول من الرسل: إنما هي إقناع الناس برسالته، وقد اختلفت وسائل هذا الإقناع، واختلفت أساليبه، وقد بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم كأسيلافه بتقرير أنه رسول، وأنه متصل بالسماء، وأن الوحي ينزل عليه تباعاً .

✓ وقد أرسله الله تعالى لحكمة سامية قد ردها القرآن في غير ما موضع: هي تزكية النفوس وتطهيرها، تزكيتها وتطهيرها خلقياً، واجتماعياً، مؤسسياً ذلك على تطهيرها وتزكيتها من ناحية العقيدة: « لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » آل عمران (١٦٤) .

« ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ، البقرة (١٢٩) .

ومن أجل ذلك كان إرساله رحمة للعالمين : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ، ولكن العرب سخرُوا من دعوته ، وكان لابد من أن يفهمهم بآية من آيات الله ، فكانت هذه الآية هي القرآن .

✓ لقد تحداهم به في عنف ، وتحداهم متدرجا بهم من أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، إلى أن يأتوا بعشر سور مثله ، ثم انتهى بهم أخيراً إلى أن يأتوا بسورة من مثله . قال تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، الإسراء (٨٨) .

« أم يقولون افتراء قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ، هود (١٣) .

« وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ، وإن تفعلوا ، فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ، البقرة (٢٣ ، ٢٤) (١) .

(١) في هذه الآيات كرر القرآن لفظ « مثل ، والمثلية لا تختص بجانب دون جانب وإنما تعم جميع المناحي . والواقع أن النقاش في أن القرآن معجز بأسلوبه ، أو بمعانيه ، أو بقصصه ، أو بأخباره عن المغيبات ، أو بغير ذلك =

ولم الشك في أمر الرسول مع أنه لو أخبرهم أن خيلا وراء الوادي
ستغير عليهم لصدقوه: لأنهم لم يعهدوا عليه كذبا؟ .

== من وجوه، إنما هو نقاش لا يتمشى مع الفكرة القرآنية التي هي في القائل
من جميع النواحي .

قال صاحب البحر المحيط : « والمثلية في حسن النظم ، وبديع الوصف ،
وغرابة الأسلوب ، والإخبار بالغيب بما كان وما يكون ، وما احتوى عليه
من الأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، والقصص ، والحكم والمواعظ ،
والأمثال ، والصدق ، والأمن من التحريف والتبديل ، ج ١ ص ١٠٤-١٠٥
ومنشا الاختلاف في تحديد وجوه الإعجاز في القرآن راجع إلى اختلاف
درجة الاستعدادات الفطرية والاتجاهات الفكرية لإدراكها ومعرفتها .
فمثلا ، من وجد القرآن مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل وأخبار
السابقين والغيبات التي لا تحيط بها البشرية علما ، حصر وجوه الإعجاز
فيما أدرك .

ومن نظر إلى القرآن من ناحية اللفظ ، وحسن السبك ، وجزالة الأسلوب
وماله من روعة تملك على السامع شعوره ووجدانه ، حصر الإعجاز في ذلك .
ومن أجال فكره فيما حواه القرآن من الأسرار السكونية التي تكشف
عنها العلوم والبحوث أيا ما كانت فهو مصدق لما في الطبيعة ، والفطر :
« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » ، انج هذا الاتجاه . . . الخ

على أنه قد لبث فيهم من قبل ذلك أربعين عاماً فلم يحدثهم بنبوة ولا برسالة :
ذلك أن هذا الأمر إنما يرجع إلى مشيئة الله فحسب : « قل لو شاء الله ما تلوته
عليكم ولا أدراكم به . فقد لبثت فيكم عمراً من قبله . أفلا تعقلون ؟ » ، يونس (١٦)
ويطلب إليهم القرآن أن يتفكروا في أمر صاحبهم هذا الذي نشأ بينهم ،
وترعرع على مرأى ومسمع منهم ، بل كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم :
بالصدق والأمانة ورجاحة العقل . قال تعالى : « قل إنما أعظكم بواحدة :
أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تفكروا ، ما بصاحبكم من جنة ، إن هو
إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ^(١) » ، سبأ (٤٦) .

(١) المعنى : على ما ورد في الزخشرى ، ملخصاً .

إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم ، وهى أن تقوموا
لوجه الله خالصاً متفرقين اثنين اثنين ، وواحدًا واحدًا ، ثم تفكروا ، فى أمر
محمد صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به : أما الاثنان فيتفكران ويعرض
كل واحد منهما لمحصل فكره على صاحبه وينظران فيه متصادقين متناصفين
لا يميل بهما اتباع هوى ولا ينبض لهما عرق عصبية حتى يهجم بهما التفكير
الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسننه . وكذلك الفرد يفكر فى نفسه
بعدل ونصفه من غير أن يكابرهما . ويعرض فكره على عقله وذهنه
وما استقر عنده من عادات العقلاء ومجارى أحوالهم .
والذى أوجب تفكرهم مثنى وفرادى : أن الاجتماع مما يشوش الخواطر =

ولم الشك في أمره مع أنه قد تجرد من كل مطمح دنيوى ؟ « قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ، إن أجرى إلا على الله ، وهو على كل شئ شهيد ، سبأ (٤٧) »

ولم التشكك في أمره وهو أعمى لا يقرأ ولا يكتب ؟ ومن كانت حاله هذه لا يمكنه أن يستمد ما يقول من كتاب . قال تعالى : « وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك ، إذا لارتاب المبطلون ، العنكبوت (٤٨) »
هذه الظروف ، وهذه الملابسات ، فضلا عن القرآن ، ترشد إلى أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) كان صادقاً في دعواه .

(٧)

معارضة العرب :

بيد أن العرب تغالوا في المعارضة حتى لقد وصلوا أحياناً إلى حد السخف ، ولكن القرآن كان لهم بالمرصاد وكان دائماً يفهمهم في قوة .
لقد قالوا : « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق ؟ ، فرد

= ويمنع من الروية ومع ذلك يقل الأنصاف ويكثر الاعتساف .
وقد علمتم أن محمداً صلى الله عليه وسلم ما به من جنة ؛ بل علمتوه أرجح قريش عقلاً وأصلهم رأياً ، وأصدقهم قولاً ، وأنزههم نفساً ، فكان مظنة لأن تظنوا به الخير ، وإذا فعلتم ذلك كفاكم أن تطالبوه بأن يأتيكم بآية .

الله عليهم بما يقطع حجته: « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، وقال: « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك، وجعلنا لهم أزواجا وذرية » .

ولم يجد اليهود ولا النصارى مفرأ من الاعتراف بأن الرسل السابقين كانوا حقاً كذلك .

وقال العرب: « لو لا نزل عليه القرآن جملة واحدة؟، فإذا بالقرآن يعلل ذلك تعليلا في غاية القوة والوضوح: « كذلك: لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا، (١) .

(١) وهذا أيضاً من اعتراضاتهم واقتراحاتهم الدالة على شرادهم عن الحق وتجافهم عن اتباعه؛ قالوا هلا نزل عليه دفعة واحدة، في وقت واحد، كما أنزلت الكتب الثلاثة؟ وماله أنزل على التفريق؟ والقائلون قريش، وقيل اليهود، وهذا فضول من القول، وممارسة بما لا طائل تحته: لأن أمر الإعجاز والاحتجاج به لا يختلف بنزوله جملة واحدة أو مفردا، وقوله تعالى: « كذلك لنثبت به فؤادك، جواب لهم أى كذلك أنزل مفردا:

✓ والحكمة فيه أن نقوى بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه، لأن المناقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئا بعد شيء وجزء عقيب جزء. ولو ألقى عليه جملة واحدة لَسَجِلَ بِهِ وَتَعَيَّى بِحَفْظِهِ .

والرسول صلى الله عليه وسلم فارقت حاله حال موسى وداود وعيسى =

✓ وقالوا : « لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ؟ فرد عليهم القرآن في أسلوب لاذع : « أم يقسمون رحمة ربك ، .

ورأوا أن يكون الرسول مَلَسَكَا ، فإذا بالقرآن يحجيبهم في منطق صارم : « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون ، .

ويذكر ذلك في موضع آخر مصورا تعلمتهم في إنكار النبوة فيقول : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا ، ويرد عليهم القرآن معللا الأمر بتعليل آخر غير السابق فيقول : « قل : لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ، .

وهذا التعليل في غاية العمق : فإنه ينطوى على سبب من أهم أسباب إرسال الرسل : فالملائكة ليسوا بطبيعتهم في حاجة إلى من يهديهم من الناحية الأخلاقية : إنهم ملائكة . ويعتمد القرآن أن يصفهم بأنهم « يمشون مطمئين » فيثبت بذلك توضيح طبيعتهم الملائكية في أذهاننا ومع ذلك يقول : « لنزلنا

== عليهم السلام حيث كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وهم كانوا قارئين كاتبين فلم يكن له بد من التلقن والتحفظ ، فأنزل عليه منجما في عشرين سنة ، وقيل في ثلاث وعشرين . وأيضا فكان ينزل على حسب الحوادث وجوابات السائلين . . . » عن الزمخشري ج ٢ ص ١٠٩

عليهم من السماء مرسكا رسولا ، لم ؟ . إنهم ملائكة ، وهم يشنون مطمئنين ،
فما حاجتهم إلى الرسالة ؟

الواقع أن مهمة الرسول الأولى ليست الأخلاق : وإنما هي معرفة الله
والملا الأعلى وما وراء الطبيعة ، وذلك لا يتأتى في صحة لا يشوبها خطأ بمنطق
عقلى أو قياس نظرى ، وإنما يتأتى عن الله بواسطة سفرائه إلى عبادهم وهم
الرسل . والملائكة كالإنسان عاجزون عن معرفة الله إلا به . ولقد قالوا ،
كما حكى القرآن عنهم في سورة البقرة : ٣٢ « سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا »
أما الأخلاق فإنها في المرتبة الثانية بعد معرفة الله .

وأرجفوا بأن محمداً يستمد القرآن من شخص معين ، فرد عليهم القرآن
في قوة : « لسان الذى يلحدون إليه أعجمى . وهذا لسان عربى مبين » .

ولما استيأس العرب من الجدل المنطقى تقمصوا عقلية الصبيان « وقالوا :
لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل
وعنب تفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً
أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى
في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، فيجيبهم القرآن
في سهولة قوية ، لا ذعة ، جادة ، ساخرة : « قل سبحان ربى اهل كنت
إلا بشراً رسولا ؟ » .

ويثور العرب حينئذ يرون منطقهم ينهار فينادون : « يا أيها الذى نزل
عليه الذكر إنك لمجنون » ، لو ما نأيننا بالملائكة إن كنت من الصادقين ؟ »

ويرد عليهم القرآن مبيناً لهم ما قد خفي عنهم « ما تنزل الملائكة إلا بالحق ، وما كانوا إذا منظرين . »

ويصور القرآن في النهاية موقفهم الحقيقي الذي لا يخرج عن أن يكون عنادا لا شائبة فيه لطلب الحق ، ولا للرغبة في الهدى فيقول : « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ، الحجر (١٤ ، ١٥) . »

« ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلدسوهم بأيديهم لقال الذين كفروا أن هذا إلا سحر مبين . »

فلما أخذتهم الحجة من جميع أقطارهم ، ورأوا أنهم أضعف من أن يغلبوا بالمنطق ، أعرضوا وقالوا : « قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل إننا عاملون ، فصلت : ٥ ؛ فيذكرهم القرآن بموقف الأمم قبلهم وينذرهم بعذاب كاهن سئمة مع هذا النوع من المعاندين . « فإن أعرضوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . »

حقا لقد كانت خصومة العرب للرسول صلى الله عليه وسلم عنيفة قوية ، ولقد صورها القرآن في قوتها وفي عنفها ، ولم يأت أن يذكر ما فاهت به العرب مما يسمى الرسول : فنذكر وصفهم له بالجنون ، وبالشعر ، وأنه ساحر أو مسحور ، وبأنه ليس من عظماء القريتين ، وبأنه يأخذ القرآن عن غيره ، أو بأن القرآن ليس إلا سحراً أو أساطير الأولين أكتبها فهي تملئ عليه بكرة وأصيلا .

ذكر القرآن كل ذلك ، وصور الخصومة في عنفوانها عارضاً أدلة
الجاحدين : ذلك أن القرآن هداية الله ، وهدايته سبحانه وتعالى هي الحق
الذى يُقْضَى عَلَى الْبَاطِلِ فَيُدْمَغُهُ فَاذَا هُوَ زَاهِقٌ .

(٨)

وجود الله :

لقد كان من الطبيعي بعد أن تثبت النبوة أن يتناقى العرب كل ما جاء
في القرآن بالقبول ، ولكن القرآن لم يكن يلقى القول على علته ، وإنما
يأتى بالقضية مبرهناً عليها بالدليل تلواً للدليل : فيرضى العقل ، ويطمئن النفس ،
ويقود الضمير إلى الإذعان . ورغم أن وجود الله أوضح من أن يبرهن
عليه فقد وجد في كل الأزمنة من « جحدوا الصانع المدبر العالم القادر ،
وزعموا : أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه ، وبلا صانع ، ولم يزل
الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان ، وكذلك
يكون أبداً » (١) .

على هؤلاء في كل زمان ومكان يرد القرآن في استفاضة وفي تنوع :
إنه يرد أولاً بضروريات فكرية ، فيثبت الدلالة الضرورية من الخلق على
الخالق : « أفى الله شك فاطر السموات والأرض ؟ » .

(١) الغزالي : المنقذ من الضلال : طبعة مكتبة الأنجلو المصرية .

« ومن آياته : أن خلقكم من تراب ، ، ومن آياته خلق
السموات والأرض ، .

ويؤكد هذا بمبادئ مقررّة يعترف بها كل انسان عند ما يفكر فيها
تفكيراً بسيطاً : إنه من البين أن الشيء لا يمكن أن يوجد بدون علة ،
ولا يمكن من جانب آخر أن يكون علة صياغة نفسه : « أم خلقوا من
غير شيء أم هم الخالقون ؟ » .

ولا يقتصر القرآن على ذلك بل يورد في غير ما موضع ، وفي غير
ما سورة ، ذلك الدليل الذي يقول عنه « كانت » ، إنه يُذكر مع
الاحترام : أعني الدليل الذي يطلق عليه أحيانا دليل العناية ، وأحيانا أخرى
دليل النظام ، أو القصد ، أو التدبير ، أو الغائية . كوهذا الدليل هو الذي يستند
إلى ما نراه في العالم من تناسق ، وتضامن ، وانسجام ، ومن تدبير محكم ، وعناية
تامة بكل صغيرة وكبيرة ، وترباط لا انفصام له بين أجزاء العالم وأجزاء
وحداته أيضا . وقد استخدم القدماء هذا الدليل ، ولا يزال المحدثون
يستخدمونه ، ويعتبره بعضهم أوضح الأدلة على وجود الله ، بل وأقواها
وهو في الوقت نفسه أسهلها بالنسبة للإدراك الانساني .

قال الله تعالى : « وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بكم » ، « الله الذي
سخر لكم البحر » ، « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً » .
« وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته » ، « والله جعل لكم

الأرض بساطاً ، . ألم نجعل الأرض مهاداً ، والجبال أوتاداً ، وخلقناكم أزواجاً ، وجعلنا نومكم سباتاً ، وجعلنا الليل لباساً ، وجعلنا النهار معاشاً ، وبنينا فوقكم سبْعاً شداداً ، وجعلنا سراجاً وهاجاً ، وأنزلنا من المعصرات ماءً أثجاجاً ، لنخرج به حياء ونباتاً ، وجنات ألفافاً؟ .

وإذا تصفحت القرآن تبينت مصداق قوله تعالى : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .

وكثير من آى القرآن ما يجمع بين دليل الخلق ودليل العناية : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » .

وتوجد آيات متتالية فى سورة الروم تجمع بين الدليلين - الخلق والعناية - وهى قوله تعالى : « يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون » ، ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنثرون ، ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجمل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين ، ومن آياته مناكم بالليل والنهار وابتغاكم من فضله ، إن فى ذلك

لآيات لقوم يسمعون ، ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً ، وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون . .

هذه الأدلة تكاد تتضمن كل ماعداها من أدلة ، قديمة كانت أو حديثة ، رغم اختلاف أساليب التعبير ، بحسب اختلاف البيئة أو الزمن :

✓ أنها تتضمنها في صورتها السهلة : الأثر يدل على المؤثر .

✓ وتتضمنها في صورتها الكلامية : كل حادث لابد له محدث .

✓ وتتضمنها في صورتها الفلسفية القديمة : الممكن والواجب .

✓ وتتضمنها في صورتها الفلسفية الحديثة ، سواء رجعنا فيها إلى شعور الوجدان ، أو فكرة الكمال أو غير ذلك .

✓ الوجدانية : والله سبحانه وتعالى واحد لا شريك له ، ويستدل القرآن بالمشاهدة العادية : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا » . هذه المشاهدة العادية تلبس صورة منطقية رائعة ، فلو كان هناك إله غير الله إذا « لذهب كل إله بما خلق ولعلنا بعضهم على بعض » .

على أن القرآن لا يكتفي بالمشاهدة وبالمنطق ، وإنما يرجع بالإنسان إلى وجدانه ، ويثبت الوحدة عن طريق النظام والعناية والتدبير فيقول في آيات رائعة : « قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، الله خير أما يشركون ؟

أم من خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون ؟
 أم من جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزاً ؟ أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون ؟
 أم من يخبئ المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟ قليلاً ما تذكرون .

أم من يهديكم في ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشرأ بين يدي رحمته ؟ أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون . أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . . سورة النمل . ٥٩ — ٦٤ .

العلم :

والله سبحانه وتعالى عالم : إنه عالم الغيب والشهادة ، الله يعلم ما تحمل كل أنثى ، وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ، سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ، الرعد ٨ — ١٠ .

والله تعالى لا يعلم الماضي والحاضر فحسب ، ولكنه يعلم المستقبل أيضاً :
 ، ما أصاب من مصيبة في الأرض ، ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل .
 (• التفكير الفلسفي)

أن نبرأها . إن ذلك على الله يسير ، الحديد ٢٢

وهو يسخر من جعلوا لله شركاء ويسألهم السؤال الإنكارى : « وجعلوا لله شركاء ، قل سمعتم ، أم تنبثونه بما لا يعلم فى الأرض ، أم بظاهر من القول ؟ »
الرعد ٢٣

وفى القرآن آية يرى بعضهم أنها تشير إلى العقل الباطن أو اللا شعور :
« وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ، طه ٧ .

والقرآن يرشد إلى أن علمه ليس مقصوراً على ذاته كما يرى أرسطو ،
وليس مقصوراً على الذات والكميات كما يرى بعض الفلاسفة ، ولكنه علم
شامل للذات والكميات والجزئيات جميعها على الوجه التام :

« يعلم ما بلج فى الأرض ، وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج
فيها ، وهو الغفور الرحيم . وقال الذين كفروا : لآتينا الساعة قل : بلى وربى
لآتيناكم عالم الغيب ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض
ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ، سبأ ٢ — ٣

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ،
وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب
ولا يابس إلا فى كتاب مبين . وهو الذى يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم
بالنهار ، ثم يبيعكم فيه ليقضى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم
تعملون ، الأنعام ٥٩ ، ٦٠

أما دليل القرآن على علم الله فهو في غاية الوضوح والقوة : « ألا يعلم
من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ » الملك ١٤

مظاهر صفاته :

الله عالم ، وهو مرید ، وقادر ، وحكيم ، ومن مظاهر صفاته هذه ،
المتضامنة ، هذا السكون وما حواه من بديع صنعته . والقرآن يتحدث
في استفاضة عن مظاهر هذه الصفات في كثير من السور ، بل لا تكاد تخلو
سورة من هذه المظاهر كلها أو بعضها .

وإليك نموذجاً يحدثك بذلك : « الله الذي رفع السموات بغير عمد
ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ،
يدبر الأمر ، يفصل الآيات لعلكم بقاء ربكم توقنون . . . إلى قوله تعالى
للذين استجابوا لربهم الحسنى ، الرعد ٢ — ١٧

(٩)

البعث :

الله سبحانه وتعالى خالق ؛ وهو واحد ، مرید ، عالم ، قادر ، وهو أيضا
باعت ، ومسألة البعث مسألة أنكروها قوم يطلق عليهم الامام الغزالي
« الطبيعيون » ، وهم قوم أنكروا البعث مع اعترافهم بالصانع . لقد اعترفوا

بالصانع لما رأوه في عجائب الطبيعة من تناسق محكم لا يمكن أن يكون وليد المصادفة ، ولكنهم رأوا أن النفس تابعة للبدن ، ولذلك تفتى بفنائه ، وكانت نتيجة ذلك أن جحدوا الآخرة ، وأنكروا الجنة والنار والحساب . على هؤلاء واضربهم ، على اختلاف بيناتهم وأسايلهم ، يرد القرآن في غير ما موضع . وطبيعيو العرب لم يكن عندهم في هذه المسألة منطق جدلي فلسفي ، وليس لهم من دليل سوى الإنكار والاستبعاد : « وقالوا : ألا إذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ؟ » . الإسراء ٤٩ . « قال من يحيي العظام وهي رميم ؟ » . يس ٧٩ .

والقرآن يرد عليهم بتذكيرهم بمظاهر قدرة الله السائدة في الكون ، وبأنه ليس من العدالة الإلهية أن يترك الإنسان سدى فلا يجازى على ما قدم : « أيجب للانسان أن يترك سدى ؟ ألم يك نطفة من منى يمنى ؟ ثم كان علقة خلقت فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والانثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟ » ، القيامة ٣٦ . وفي القرآن كثير من الآيات ترد عليهم مستندة إلى مظاهر قدرة الله وعدالته .

وفيه آيات متتالية في آخر سورة يس تحدث عن رأى منكري البعث ، ثم ردت عليهم ردوداً متنوعة مختلفة واضحة قوية ، ونحن نذكر هذه الآيات ، ونذكر تفسير الكندي لها نقلاً عن كتاب الكندي للأستاذ أبي ريدة :

« قال من يحيي العظام وهي رميم ؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ، أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى ، وهو الخلاق العليم ، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون . »

ويقول الأستاذ أبو ريذة عن تفسير الكندي لهذه الآيات : إن « فيه يبرز فيلسوفنا الأصول النظرية التي تتضمنها هذه الآيات من جهة ، ويستخرج النتائج التي تلزم عنها من جهة أخرى ، وهي :

١ — وجود الشيء من جديد ، بعد كونه وتحلله السابقين ، ممكن ، بدليل مشاهدة وجوده بالفعل مرة ، لا سيما أن جمع المتفرق أسهل من إيجاد وإبداعه عن عدم ، وإن كان لا يوجد بالنسبة لله شيء هو أسهل وشيء هو أصعب — هذا الدليل موجود في الآيات في كلمات قليلة : « قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم ، »

٢ — ظهور الشيء من نقيضه كظهور النار من الشجر الأخضر ، ممكن ، وواقع تحت الحس . وإذا يمكن أن تدب الحياة في الجسد المتحلل الهامد مرة أخرى ، وذلك أيضاً على أساس المبدأ الأكبر ، وهو أن الشيء يمكن أن يوجد من عدم المطلق بفعل المبدع الحق — هذا الدليل موجود في آية : « الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ، فإذا أنتم منه توقدون ، »

وقد انتفع به الأشعري في إثبات إمكان البعث .

٣ — خلق الإنسان أو إحياءه بعد الموت أيسر من خلق العالم الأكبر بعد أن لم يكن ، وهذا هو مضمون آية . « أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ » بلى وهو الخلاق العليم .

٤ — الخلق ، والفعل مطلقاً مهما عظم المخلوق ، لا يحتاج من جانب الله المبدع لا إلى مادة ولا إلى زمان — خلافاً لفعل البشر الذى لا يتم إلا فى زمان ، ويحتاج إلى مادة تكون موضوع الفعل ؛ وهذا هو معنى آية : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن ! فيكون » .

وهذه الآية ، فى رأى السكندى ، إجابة عما فى قلوب الكفار من النكير بسبب ظنهم أن الفعل الإلهى المتجلى فى خلق العالم الكبير يحتاج إلى زمان يناسب عظمته ، قياساً منهم لفعل الله على فعل البشر ، لأن فعل البشر لما هو أعظم يحتاج إلى مدة زمانية أطول ، فجاءت الآية حاسمة فى بيان نوع الفعل الإلهى وأنه إبداع بالإرادة الخالقة والقدرة المطلقة ، لا يحتاج إلى مادة ولا إلى امتداد زمانى .

« فأى بشر — كما يقول السكندى — يقدر بفلسفة البشر أن يجمع ، فى قول بقدر حروف هذه الآيات ، ما جمع الله ، جل وتعالى إلى رسوله — صلى الله عليه وسلم — فيها من إيضاح أن العظام تحيى بعد أن تصير رميماً ، وأن قدرته تخلق مثل السموات والأرض ، وأن الشئ يكون من نقيضه »

كثرت عن ذلك الألسن المنطقية المتحايلة، وقصرت عن مثله نهايات البشر،
وحجبت عنه العقول الجزئية، اه^(١)

على أننا لا نترك موضوع البعث دون أن نوجه ذهن القارئ إلى هذا
التنظير البديع الذي ذكره القرآن الكريم بين الأرض الموات التي يحييها
الله فتنبث من كل زوج بهيج، والعظام والرفات التي يحييها الله ويصورها
فيحسن تصويرها، «يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا
خلقناكم من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة مخلقة وغير
مخلقة لتبين لكم، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى، ثم نخرجكم
طفلاً، ثم لتبنغوا أشدكم، ومنكم من يتوفى، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر:
لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً؛ وترى الأرض هامدة، فإذا أنزلنا عليها الماء
اهتزت، وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج. ذلك بأن الله هو الحق، وأنه
يحيي الموتى، وأنه على كل شيء قدير، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله
يبعث من في القبور، الحج ٥ - ٧

مشاهد القيامة :

ويسبق البعث ويعقبه أمور تحدث عنها القرآن في كثير من الآيات ووصفها
في روعة أخاذة : إنها تصف يوم القيامة، وتحدث عن الحساب والميزان

(١) رسائل السكندی ص ٥٧ - ٥٨

وتصف حالة المؤمنين والكافرين ، وتصور النار في صورتها البشعة الكريمة ،
والجنة في روحها وربحانها وصورها ورياضها الفيحاء ، وسنكتفي من كل
ذلك بآيات من آخر سورة الزمر :

« وما قدرُوا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة
والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون . ونفخ في الصور
فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى
فإذا هم قيام ينظرون . وأشرق الأرض بنور ربها ، ووضع الكتاب ،
وجيء بالنبيين والشهداء ، وقضى بينهم بالحق وهم لا يظنون . ووفيت كل
نفس ما عملت ، وهو أعلم بما يفعلون .

وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ، حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها ،
وقال لهم خزنتها : ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم ، وينذرونكم
لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : بلى . ولكن حقَّت كلمة العذاب على الكافرين .
قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فبئس مثوى المتكبرين . وسيق
الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ، حتى إذا جاءوها ، وفتحت أبوابها ،
وقال لهم خزنتها : سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله
الذى صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء ، فنعم
أجر العاملين . وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ،
وقضى بينهم بالحق ، وقيل الحمد لله رب العالمين .

(١٠)

الفرآة ومعتقدات العرب :

إن ما قدمناه سابقاً لم يكن إلا مناح موجزة من العقيدة الإسلامية، لم تستوعبها . فنحن لم نتبع القرآن آية آية ، أو سورة سورة ، لنصل من ذلك إلى إعطاء فكرة تامة عن العقيدة الإسلامية .

على أن إيضاح هذه العقيدة يستلزم حتماً توضيح موقف القرآن مما كان منتشرأ في جزيرة العرب من معتقدات . لقد قلنا سابقاً: إن جزيرة العرب كانت ملأى بمختلف العقائد ، سواء ما استند منها إلى الخيال والوهم ، أو ما استند منها في أساسه إلى كتاب سماوى . والقرآن يتحدث عن هؤلاء وأولئك ويناقشهم ويجادهم ليقودهم في النهاية إلى الطريق المستقيم .

وإذا كان القرآن قد تحدث عن هذه المعتقدات ، فلم يكن ذلك لأنها في جزيرة العرب فحسب ، وإنما كان ذلك لأنها أنماط من معتقدات منتشرة في جزيرة العرب وفي خارجها ، وكان هدفه من ذلك طبعاً تخليص فكرة الألوهية عن كل ما يشوبها من خطأ ووهم وضلال .

تحدث القرآن عن معبودات لا تتصف بصفة الحياة كالآصنام والكواكب ، وفي قصة سبأ ذكر لعبادة الشمس ؛ وفي قصة إبراهيم ذكر لهذين النوعين وفيها ما يبطلهما .

أما فيما يتعلق بالسكواكب : فإنه من البين أن الإله لا يطرأ عليه المغيب ،
إذ الإله منزّه عن ذلك :

« فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب
الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدينى ربى
لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر .
فلما أفلت قال يا قوم إني برىء مما تشركون ، الأنعام ٧٦ ، ٧٨ .

يبد أن عبادة الأصنام كانت متغلغلة في جزيرة العرب إلى درجة هي
من القوة بحيث اقتضت القرآن أن يتفنن في الرد عليها ، واختلفت أساليب
رده بين الجدد الصارم ، والسخرية اللاذعة ، والتهكم المرير :

« واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه : ما تعبدون ؟ قالوا نعبد
أصنامنا فنظّل لها عاكفين . قال : هل يسمعونكم إذ تدعون ؟ أو ينفعونكم
أو يضرون ؟ ، سورة الشعراء ٦٩ — ٧٣

أما الأسلوب المنطوق الساخر المتهكم : فإنه يتمثل في الآيات التالية :
« ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه :
ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ قالوا وجدنا آبائنا لها عابدين .
قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين . قالوا : أجبنا بالحق أم أنت من
اللاعبيين ؟ قال : بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على
ذلكم من الشاهدين . وتالله لا يكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين .

فجعلهم جذاً إذا إلا كبيراً لهم لعلمهم إليه يرجعون . قالوا : من فعل هذا بأهلنا ؟
إنه لمن الظالمين . قالوا : سمعنا قتي يذكرهم يقال له إبراهيم ، قالوا : فأتوا به على
أعين الناس لعلمهم يشهدون . قالوا : أأنت فعلت هذا بأهلنا يا إبراهيم ؟ قال :
بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا :
إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون .
قال : أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ؟ أفأنتم ولما تعبدون
من دون الله ، أفلا تعقلون ؟ . الانبياء ٥١ — ٦٧

أما عجل بنى اسرائيل : فقد كان له خوار ، ثم إنه ولا يرجع إليهم قولاً ،
ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ، طه : ٨٨ — ٨٩

ولم يقتصر القرآن — في تصحيح فكرة الألوهية في العالم — على الرد
على عبدة الأصنام أو السكواكب ، إذ كان هناك عبدة فرعون ، وعبدة الجن ،
وعبدة الملائكة ، وقد ذكر القرآن كل هؤلاء ، وهم جميعاً ينطبق عليهم ما ينطبق
على الذى حاج إبراهيم في ربه . فليس في استطاعتهم أن يغيروا مجرى سير
السكواكب الذى رسمه الله لها منذ أن وُجدَ العالم : ألم تر إلى الذى حاج
إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك ؟ إذ قال إبراهيم : ربى الذى يحيى ويميت ،
قال : أنا أحيى وأميت ، قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت
بها من المغرب ، فهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين ، البقرة ٢٥٨ .
وليس في استطاعتهم ، مجتمعين ، أن :

« يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ؛ ضعف الطالب والمطلوب » الحج (٧٣) .

فإذا كانوا قد عجزوا عن أن يغيروا سنة واحدة من سنن الله الكونية ، وعجزوا عن أن يخلقوا ذبابة ، بل يعجزون عن أن يستنقذوا منها ما استلبته منهم ... إذا كانوا قد عجزوا عن ذلك فليسوا بآلهة لأن من خصائص الإله المقدرة العامة الشاملة .

المسيحية :

على أن الصراع القوى : إنما كان بين الإسلام من جانب ، والمسيحية واليهودية من جانب آخر : فقد كان اليهود يعتزون بالتوراة ، ويعتزون بإبراهيم وموسى ، وينظرون إلى كل من عداهم نظرة احتقار ، يسرونها أحيانا ، ويعلنونها حينما توانتهم الظروف .

وكان المسيحيون يعتزون بالانجيل ، ويعتزون بعيسى وموسى وإبراهيم ، وينظرون إلى غيرهم نظرتهم إلى القطيع الضال يتطلب راعيا يقوده إلى الحظيرة .

وقد زاد اعتزازهم بأديانهم حينما اعترف القرآن بموسى وعيسى ، واعترف بما أنزل الله عليهما من توراة وانجيل .

وحقا لقد كان موقف القرآن كريما بالنسبة إلى المسيحيين ، أنظر إليه

في سموه إذ يقول : « إذ قالت الملائكة : يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه : المسيح عيسى بن مريم ، وجيها في الدنيا والآخرة ، ومن المقربين . ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين . قالت : رب أنى يكون لى ولد ولم يسسنى بشر ؟ قال : كذلك الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون . ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل . ورسولا إلى بنى إسرائيل : أنى قد جئكم بآية من ربكم ! أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، وأبرئ الأكمه والابرص وأحيى الموتى بإذن الله ، وأنبشكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ، إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ، آل عمران ٤٥ — ٤٩ .

وبينا يرى اليهود مريم بأشع النقائص لحملها بدون زواج إذا بالقرآن يقول : « يا مريم إن الله اصطفاك ، وطهرك ، واصطفاك على نساء العالمين ، آل عمران (٤٢) .

ولكن القرآن لا يعرف المجاملة فى الحق ، وقديما قال أرسطو كلمته المشهورة : « أحب أفلاطون وأحب الحق وأوثر الحق على أفلاطون » . وإذا كان القرآن يعترف بأن أقرب الناس مودة إلى المؤمنين : هم الذين قالوا : إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ، فإنه لا يجامل فى بيان الحق وتوضيح الجادة وتصحيح فكرة الألوهية التى حرفها النصارى بعد عيسى .

لقد أرسل الله عيسى برسالته إلى بنى إسرائيل ، خرفها من بعده الذين

انتسبوا إليه أفضع تحريف ، وشوهوها أبشع تشويه ، وأبعدوا في الضلال :
 فزعموا تارة أن المسيح هو الله ، وزعموا أن المسيح ابن الله ، وزعموا أن
 الله ثالث ثلاثة . بل لقد ألّهوا مريم ! ، وكل هذا ضلال تنزه عنه الرسالة
 الإلهية . وقد رد عليهم القرآن من طريق المنطق تارة ، ومن طريق كتبهم
 وما جاء فيها أخرى ، وفي كلتا الحالتين كان أسلوبه قوياً عنيفاً كأنه
 الصواعق تنزل على افتراءهم فتحطمه تحطياً :

« وقالوا : اتخذ الرحمن ولداً ۝ ١١ : لقد جئتم شيئاً لداً ۝ ١٢ . تكاد السموات
 يتفطرن منه ، وتنشق الأرض ، وتخزع الجبال هداً ، : أن دعوا للرحمن
 ولداً ، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً . إن كل من في السموات
 والأرض إلا آتى الرحمن عبداً . » سورة مريم ٨٨ — ٩٣

ويرد عليهم القرآن وعلى غيرهم في هذا متخذاً أساس الرد عقيدة من
 عقائدهم : إنهم يعتقدون أن ليس لله تعالى زوجة ، فيقول القرآن : « بديع
 السموات والأرض أتى يكون له ولد ولم تسكن له صاحبة وخلق كل شيء
 وهو بكل شيء عليم ؟ » (١) سورة الأنعام ١٠١

(١) يقول صاحب البحر المحيط في تفسير هذه الآية : « كيف يكون
 له ولد وهذه حاله : أى أن الولد إنما يكون من الزوجة وهو لازوجة له
 فلا ولد له . وفيه إبطال الولد من ثلاثة أوجه ، أحدهما : أن مبتدع السموات =

ثم إن النصارى ألَّهوا المسيح وأمه عليهما السلام ، وأخذ القرآن
يرد عليهم في هذا بمختلف الردود :

« وإذ قال الله : يا عيسى بن مريم أنت قلت للناس : اتخذوني وأمي إلهين
من دون الله ؟ قال : سبحانك ! ما يكون لي أن أقول : ما ليس لي بحق ، إن كنت
قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ، إنك أنت علام
الغيوب ؛ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به : أن اعبدوا الله ربي وربكم ، وكنت
عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت
على كل شيء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت
العزيز الحكيم ، سورة المائدة ١١٦ — ١١٧

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم ، قل : فمن يملك من الله
شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً ؟

= والأرض ، وهي أجسام عظيمة لا يستقيم أن يوصف بالولادة لأن
الولادة من صفات الأجسام ، ومخترع الأجسام لا يكون جسماً حتى يكون
والداً . والثاني : أن الولادة لا تكون إلا بين زوجين من جنس واحد ،
وهو تعالى متعال عن مجانس ، فلم يصح أن تكون له صاحبة ، فلم تصح
الولادة . والثالث : أن ما من شيء إلا وهو خالقه والعالم به ، ومن كان
بهذه الصفة كان غنياً عن كل شيء ، والولد إنما يطلبه المحتاج إليه . . .

النهر الماد من البحر ج ٤ ص ١٩٤

والله ملك السموات والأرض وما بينهما ، يخلق ما يشاء ، والله على كل شيء قدير ، سورة المائدة ١٧

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم ، وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم ، إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وماواه النار ، وما للظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد ، سورة المائدة ٧٢ — ٧٣ ، وينبه القرآن المسيحيين إلى أن المسيح وأمه « كانا يأكلان الطعام »^(١) ، ومن البين أن الذي يأكل الطعام ، فيتحول في جسمه دماً ولحماً وعظاماً ، وينضح عرقاً ، ويخرج فضلة لو بقيت في الجسم لأضرته . . . من الواضح أن كائناً من هذا النمط لا يمكن أن يكون إلا بشراً ، خاضعاً لكل قوانين البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في مرتبته كرَسُول .

لقد كان لميلاد المسيح بدون أب أثر قوي في زيغ كثير من النصارى وكثير من اليهود : لقد غلا النصارى فقالوا : إنه ابن الله ، وأسرف اليهود في عنادهم فرموا أمه المطهرة بالفجور . على هؤلاء وأولئك يرد القرآن في بساطة ووضوح بأن : « مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ : خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ ، .

واليهود والنصارى يعترفون بأن آدم خلقه الله دون أب وأم ، فأمره

إذا أعجب وأغرب من أمر عيسى ، فما كان لهم أن يغلوا في أمره غير الحق ،
أو يسرفوا في الانتقاص من أمه .

اليهود :

وإذا كان المسيحيون هم أقرب الناس مودة للمسلمين ، فإن أشد الناس
عداوة للمسلمين هم اليهود ، ومثلهم في ذلك مثل الذين أشركوا ؛ هكذا
يصنفهم القرآن ، ويستفيض في الجدل معهم استفاضة تناسب مع تاريخهم
الطويل ، وعنادهم الشديد ، ومكرهم الخبيث . ولقد كان الصراع قوياً عنيفاً
بين الإسلام واليهودية : كان صراعاً بالمنطق والبرهان ، وكان صراعاً بالسيف
والرمح ، ولا يعنينا هنا التحدث عن السيف والرمح وإنما نتحدث عن
الصراع بالمنطق والبرهان .

ولقد خص القرآن آل عمران من بني إسرائيل بسورة من أكبر
سوره : هي سورة آل عمران : سماها باسمهم . وسورة المائدة ، وهي من أكبر
سور القرآن أيضاً ، تكاد تكون مقصورة عليهم . وفي القرآن سورة يوسف
وسورة إبراهيم ، وسورة مريم ، وسورة الأنبياء ، وكلها ملأى بالحديث عن
بني إسرائيل ، أما سورة الأعراف فإنها تروى قصة موسى مع فرعون ومع
السحرة المصريين ، وتتحدث عن إخراج بني إسرائيل من مصر ، ومناجاة
موسى لربه وأخذه الألواح ، وتذكر انحراف بني إسرائيل ، واتخاذهم العجل
معبوداً وغير ذلك من شئونهم .

على أن القرآن لا يقتصر — في الحديث عن بني إسرائيل — على هذه السور التي ذكرناها ، وإنما تخلل الحديث عن بني إسرائيل كثيراً من السور .

من ذلك نرى مبلغ الأهمية التي وجهها القرآن إلى بني إسرائيل لإرشادهم إلى الجادة . ولقد صور القرآن في أحاديثه هذه أخلاقهم في وضوح ، وكان في ذلك كطبيب يشخص المرض تشخيصاً دقيقاً حتى يسهل العلاج . ولكن اليهود الذين بلغوا من موسى مبلغاً جعله يقول : « رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين » ، كانوا عصيين على العلاج ، حتى لقد أياسوا داود وعيسى — عليهما السلام — فلعنناهم : « لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » سورة المائدة ، ٧٨ — ٧٩ . ولقد وصل بهم الأمر إلى أن كانوا يقتلون أنبياءهم بغير حق .

بيد أن هذه الناحية الأخلاقية ليست من أهدافنا الأولى في هذا الكتاب ، ونَصَفَحُ القرآن خيرُ هادٍ لمعرفة . والذي يعنيننا هنا إنما هو عقيدة اليهود . والقرآن يذكر أنهم اتخذوا العجل معبوداً ، وأنهم قالوا : « عزير بن الله » ، وأنكروا رسالة محمد وعيسى — عليهما السلام — . وقد تحدثنا عن رد القرآن على هذه الأمور فيما سبق .

تحديد فكرة الألوهية :

وإذ بدد القرآن كل شبهة حلقت في سماء فكرة الألوهية ، وثنية كانت تلك الفكرة أو كتابية ، فإنه خص فكرة الألوهية بسورة واضحة ، جلية ، سهلة ، موجزة ، سماها : سورة الإخلاص : لتخليصها تلك الفكرة من شوائب كل باطل وضلال :

« بسم الله الرحمن الرحيم . قل : هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، .

ولقد ورد في الخبر : أنها تعدل ثلث القرآن « لأن من عرف معناها حق المعرفة وأدرك ما أشارت إليه إدراك صاحب البصيرة المستنيرة لم يكن بقية ما جاء في التوحيد والتنزيه عنده إلا تفصيلاً لما علم ، وشرحاً لما حصل ، ^(١) .

في هذه السورة يوصف الله بأنه « أحد » ، وكلمة أحد أبلغ في الدلالة على الوحدة من كلمة « واحد » ، فأحديّة الله لا تركيب فيها بوجه من الوجوه . إنها ليست كواحدية الإنسان الذي يتركب من أعضاء ووحدات . وفي هذه الآية تحديد فكرة الاسلام في مقابل فكرة التعدد على أى وضع كانت و « لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة » ، إنها تنفي التثليث

(١) الشيخ محمد عبده - جزء عم ص ١٧٦

وتنفى التركب ، إنما رد على النصارى ، وعلى مشركى العرب ، وهى رد على
مشبهة الاسلام فيما بعد .

و الله الصمد ، فإنه يرجع الأمر كله ، وهو وإن كان قد سبب
الأسباب ، وأجرى سنته على أوضاع محددة ، وطلب إلينا أن نتخذ الأسباب ،
فإنه مع ذلك المرجع الأول والآخر لكل ما يجرى فى هذا العالم من
شئون ؛ فإذا ما توجهت الآمال إلى ما سواه فقد ضلت وانحرفت ؛ ولقد
ضلت بسبب ذلك النصارى واليهود فقد اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من
دون الله . وفى هذه الآية بصورة عامة توجيه وهداية لكل من كان
يعلق آماله على غير الله .

« لم يلد ولم يولد » (ينزه الله عن أن يلد أحداً . ويشير إلى فساد رأى
القائلين بأن له ابناً أو بنات ، وهم مشركو العرب والهند والنصارى وغيرهم ،
ويبين لهم أن الإبنية تستلزم الولادة ، والتعبير بالانبثاق ونحوه لا يغير
المعنى ، والولادة إنما تكون من الحى الذى له مزاج ، وما له مزاج فهو
مركب ، ونهايته إلى انحلال وفناء ، وهو جل شأنه منزّه عن ذلك . وقوله :
« لم يولد » ، يصرح ببطالان ما يزعمه بعض أرباب الأديان من أن ابناً لله يكون
إلهاً ، ويعبد عبادة الإله ، ويقصد فيما يقصد فيه الإله ، بل لا يستحى الغالون
منهم أن يعبروا عن والدته بـ « أم الله القادرة » ، فإن المولود حادث
ولا يكون إلا بمزاج ، وهو لا يسلم من عاقبة الفناء . ودعوى أنه أزلى

مع أبيه عما لا يمكن تعقله ، ولا تغير من حقيقة الأمر شيئاً .
فإذا أراد أحد من هؤلاء أن يدعى التنزيه فما عليه إلا أن يقلع عن
هذه الألفاظ والنسب ويقول : كما نقول : الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ،
ولم يولد ، (ولم يكن له كفواً أحد) . . . وهونى لما يعتقد بعض المبطلين
من أن الله ندأ في أفعاله يعاكسه في أعماله على نحو ما يعتقد بعض الوثنيين
في الشيطان مثلاً . فقد نفي بهذه السورة جميع أنواع الإشراك وقرر جميع
أصول التوحيد والتنزيه (١) .

(١٢)

القرآن وأسماء العرب :

في هذه الفترة من صدر الاسلام — فترة حياة الرسول — كان
القرآن وكان الرسول في أحاديثه يلبيان حاجات الأمة ، اعتقادية كانت
أو تشريعية أو خلقية ، وكانت الأسئلة تترى موجهة إلى الرسول ، فيجيب
عنها الوحي القرآني تارة ، وتجييب عنها أحاديث الرسول تارة أخرى ؛ وأسئلة
المجتمع إذ ذاك لم تكن تنتهي إلى حد ، وكانوا يسألون الرسول في كل
صغيرة وكبيرة : فقد سألوه عن الروح ، وسألوه في القدر ، وسألوه عن
الآزل ، وسألوه عن المصير ، وسألوه عن الله ، وعن الايمان ، والاسلام ،
والإحسان ، والساعة .

وسألوه عن الخمر والميسر ، والمأكل والمشرب ، والآلهة ، والمحيط ،
وسألوه عن كل ما كان يحول في أذهانهم .

وكان القرآن سجلاً يصور الكثير من الأسئلة ويعطى الإجابة عنها ،
وهاهي آيات متتالية من سورة البقرة توضح هذه الفكرة :

« يسألونك : ماذا ينفقون ، قل : ما أنفقتم من خير فملوا الدين والأقربين
واليتامى والمساكين ، وابن السبيل ، وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم ،
كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تسكروا شيئاً وهو خير لكم ،
وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل : قتال فيه كبير ، وصعد عن
سبيل الله وكفر به ، والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ،
والفتنة أكبر من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم
إن استطاعوا ، ومن يردد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت
أعمالهم في الدنيا والآخرة ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . إن الذين
آمَنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ،
والله غفور رحيم .

يسألونك عن الخمر والميسر ، قل : فيهما إثم كبير ، ومنافع للناس ، وإثمهما
أكبر من نفعهما .

ويسألونك : ماذا ينفقون ، قل : العفو ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم
تتفكرون في الدنيا والآخرة .

ويسألو نك عن اليتامى ، قل : إصلاح لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم ،
والله يعلم المفسد من المصلح ، ولو شاء الله لاعتنكم ، إن الله عزيز حكيم .
ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ، ولامة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ،
ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ،
أولئك يدعون إلى النار ، والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ، ويبين آياته
للناس لعلهم يتذكرون .

ويسألو نك عن المحيض ، قل : هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض
ولا تقربوهن حتى يطهرن ، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ،
إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين .

أظن أننا بعد الذى قدمناه اسنا فى حاجة إلى الرد على الأستاذ دى بور
فى قوله : « جاء القرآن للمسلمين بدين ، ولم يحتمهم بنظريات ؛ وتلقوا فيه
أحكاماً ، ولكنهم لم يتلقوا فيه عقائد ، ^(١) .

لقد رأينا بوضوح فيما سبق : أن القرآن جاء للمسلمين بدين ،
وبنظريات ، وبأحكام ، وبعقائد .

✓ ولا شك أن الإمام الرازى كان أصدق رأياً ، وأعمق غوراً إذ يقول
معبراً عن الحقيقة : « إن الآيات الواردة فى الأحكام الشرعية أقل من

(١) تاريخ الفلسفة فى الاسلام : ترجمة أبى ريدة ص ٤٦

سِتِّمَةِ آيَةٍ ؛ وَأَمَّا الْبَوَاقُ فِي بَيَانِ التَّوْحِيدِ ، وَالنَّبُوَّةِ ، وَالرَّدِّ عَلَى عَبْدِ الْاَوْتَانِ ،
وَأَصْنَافِ الْمُشْرِكِينَ ، .

ويقول : « وَأَمَّا مُحَمَّدٌ — عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ — فَاشْتَغَالَهُ بِالذَّلَائِلِ
عَلَى التَّوْحِيدِ ، وَالنَّبُوَّةِ ، وَالْمَعَادِ . أَظْهَرَ مِنْ أَنْ يَحْتَاجَ فِيهِ إِلَى التَّطْوِيلِ ، اهـ .
وَلَمْ يَرْفَعْ الرَّسُولَ إِلَّا وَقَدْ أَكْمَلَ اللَّهُ دِينَهُ ، وَأَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ :
« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » .
لَقَدْ أَكْمَلَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ الْإِيمَانَ ، فَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى زِيَادَةِ أَبَدًا ، وَقَدْ
أَتَمَّهُ عِزٌّ وَجَلٌّ ، فَلَا يَنْقُصُهُ أَبَدًا ، وَقَدْ رَضِيَهُ ، فَلَا يَسْتَخْطُهُ أَبَدًا .

الفصل الثالث^(١)

الفرق والأحزاب الدينية

(١)

صربت الفرق وتقسيم المنقرمين :

روى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، الناجية منهم واحدة والباقون هلكي » . قيل : ومن الناجية ؟ قال : « أهل السنة والجماعة » ، قيل : وما السنة والجماعة ؟ قال : « ما أنا عليه اليوم وأصحابي » .

لقد أثار هذا الحديث تفنن كثير من مؤرخي الفرق الإسلامية ، فحيل إليهم : أنه من المحتم عليهم أن يبلغوا بالفرق الحد الذي ذكر في هذا الحديث ، والشهرستاني ، المتوفى سنة ٥٤٨ هـ - ١١٥٣ م ذكر هذا الحديث في مستهل كتابه « الملل والنحل » ، ثم أخذ في تعداد الفرق ، وحصرها في العدد المذكور : وكأنه قد تيقن أنه سوف لا تنشأ ، حقيقة فرق بعده^(٢) ؛ وكأنه

(١) من مصادر هذا الفصل : شرح العقائد العضدية للجلال الدواني وحاشية الإمام محمد عبده . مقدمة ابن خلدون . الملل والنحل للشهرستاني .

(٢) لقد زاد عدد الفرق عند الإمام الرازي فقال كالمعتذر :
فإن قيل : إن هذه الطوائف التي عددهم أكثر من ثلاث وسبعين ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يخبر بأكثر ، فكيف ينبغي أن يعتقد في ذلك ؟ -

والجواب عن هذا : أنه يجوز أن يكون مراده - صلى الله عليه وسلم - =

قد تيقن ، أيضاً ، أنه أحاط بكل ما كان يموج به العالم الاسلامى فى زمنه — على سعة — من آراء . وقد صنع كثير غيره صنيعه فى حصر هذه الفرق وعدها بطرق تدعونا أحياناً إلى الالتسام ، لسذاجتها : قال «ابن الجوزى» فى كتاب «تلبس إبليس» : بعد أن ذكر أن أصول الفرق هى «الحرورية» ، «القدرية» ، «الجهمية» ، «والمرجئة» ، «والرافضة» ، «والجبرية» : «وقد قال بعض أهل العلم : أصل الفرق : هذه الست ، وقد انقسمت كل فرقة منها اثنتى عشرة فرقة ، فصارت اثنتين وسبعين فرقة ، اهـ . لقد أراد بعض أهل العلم هذا ، رحمه الله ، أن يتخلص من حصر الفرق ، فكان منه هذا التقسيم السهل ، الساذج ، الذى يرتكز على المساواة فى تقسيم كل أصل من أصول الفرق .

✓الفرقة الناجية فى رأى كل فرقة :

وإذا كان مؤرخو الفرق قد تعسفوا فى تعدادها ، فإن رجال الفرق أنفسهم قد دافع كل منهم عن فرقته ، ورأى أنها ، وحدها ، هى الناجية ، من ذكر الفرق ، الفرق الكبار . وما عددنا من الفرق ليست من الفرق العظيمة . وأيضاً فإنه أخبر أنهم يكونون على ثلاث وسبعين فرقة . فلم يحز أن يكونوا أقل . وأما إن كانت أكثر فلا يضر ذلك . كيف ولم نذكر فى هذا المختصر كثيراً من الفرق المشهورة ؟ ولو ذكرناها كلها مستقصاة لجاز أن يكون أضعاف ما ذكرنا . بل ربما وجد فى فرقة واحدة من فرق الروافض — وعم الإمامية — ثلاث وسبعون فرقة .

الرازى : «اعتقادات فرق المسلمين والمشرىكين» ص ٧٤ — ٧٥

أما ما عداها فهو النار . وقد وصل بهم الأمر في تبرير رأيهم أن يتلقفوا كل ما يتوهمون أنه يساعدهم ، ولو كان باطلا يدعو إلى السخرية ، أو مجرد تخيل لا يقام له وزن . وهالك مثالا على ذلك ذكره صاحب العقائد العضدية :

« قال ابن المطهر ، المحلى فى بعض تصانيفه : قد باحثنا فى هذا الحديث مع الأستاذ « نصير الدين ، ابن « محمد ، الطوسى فى تعيين المراد من الفرقة الناجية ، فاستقر رأى على أنه ينبغى أن تكون تلك الفرقة مخالفة لساائر الفرق ، مخالفه كثيرة ، وما هى إلا « الشيعة الإمامية ، فإنهم يخالفون غيرهم من جميع الفرق ، مخالفة بيّنة ، بخلاف غيرهم من الفرق ، فإنهم يتقاربون فى أكثر الأصول .

قلت : أكثر الشيعة يوافق المعتزلة فى أكثر الأصول ، ولا يخالفها إلا فى مسائل قليلة ، أكثرها يتعلق بالإمامة ، وهى بالفروع أشبه ؛ بل الأليق بذلك هم الأشاعرة : فإن أصولهم مخالفة لأكثر أصول المذاهب ، ولا يوافقهم فيها غيرهم : كمسألة الكسب ، وجواز رؤية الله تعالى — مع كونه غير جسم — وتنزهه عن المسكان ، والجهة ؛ بل جوزوا رؤية كل موجود من الأعراض وغيرها ، حتى جوزوا رؤية الأصوات ، والطعوم ، والروائح ؛ وجوزوا رؤية أعمى الصين بقعة الأندلس ، واستناد الممكنات كلها إلى الله تعالى ابتداء ، وكون صفاته لا هى عين الذات ولا غيرها ، والفرق بين الإرادة والرضا ، إلى غير ذلك من المسائل التى شنع مخالفوهم عليهم فيها ^(١) ، اهـ .

(١) العقائد العضوية ص ٧ .

أرأيت كيف يُسْتَحْذُ الاختلاف ، والإغراق في الابتعاد عن الآخرين : أساساً للنجاة ؟ ولو اتبعنا هذا الأساس لكان الإغراق في الإلحاد أساساً للنجاة ، بل لكان التخريف ، أو تخيلات المجانين ، أكثر قرباً للنجاة : لأنها أكثر ابتعاداً عن آراء الآخرين .

الفرقة الناجية . . . إنها المعتزلة في رأى المعتزلة ، وهى الكرامية ، فى رأى الكرامية وهى المشبهة فى رأى المشبهة . وكل فرقة ترى أن من عداها فى النار . . .

ولكن ما رأى المفكر الحديث فى هذه المشكلة التى أثارها هذا الحديث ؟ . من هى الفرقة الناجية فى نظره ؟ ومن هى الفرق الهلكى ؟ وهل انتهت الفرق إلى العدد المذكور فى الحديث ؟ .

إذا تجرد الإنسان ، نوعاً ما ، من عصييته لفرقته فما هو شعوره مام هذا الحديث ؟

ذلك ما يوضحه خير توضيح المرحوم الشيخ محمد عبده ، فى تعليقه على هذا الحديث فى « العقائد العنصرية » . ولعل فى نقل هذا النص — بأكمله — مساهمة فى إيجاد جو من النسخ بين هذه الفرق التى تتطاحن تارة باللسان ، وتارة بالسنان . . .

(٢)

رأى الشيخ محمد عبده فى الحديث :

قال رحمه الله تعالى : « لا بد أن تسكلم فى هذا الحديث بكلام موجز ، فاسمع واعلم : أن هذا الحديث قد أفادنا أن يكون فى الأمة فرق متفرقة ، وأن الناجى منهم واحدة ، وقد بينها النبى : بأنها التى على ما هو عليه وأصحابه .

وكون الأمة قد حصل فيها افتراق على فرق شتى تبلغ العدد المذكور أو لا تبلغه ، ثابت ، قد وقع لاحالة . وكون الناجي منهم واحدة أيضاً حق ، لا كلام فيه . فإن الحق واحد ، هو ما كان النبي عليه وأصحابه . فإن ماخالف ما كان عليه النبي فهو رد .

أما نعين أية فرقة هي الفرقة الناجية ، أى التى تكون على ما هو عليه وأصحابه ، فلم يتبين إلى الآن . فإن كل طائفة ممن يدعى لنفسه بالرسالة تذهب تجعل نفسها على ما النبي عليه وأصحابه ؛ حتى إن « مين باقر الداماد » برهن على أن جميع الفرق المذكورة فى الحديث هي فرق « الشيعة » ، وأن الناجي منهم فرقة « الإمامية » . وأما « أهل السنة » ، و« المعتزلة » ، وغيرهم من سائر الفرق فجميعهم من أمة الدعوة .

فكل يدعى هذا الأمر ، ويقيم على ذلك أدلة :

مثلاً الفيلسوف يقول : إن فيض الحق تعالى دائم أزلاً وأبداً . ويستدل على ذلك بأنه جواد لا يشوبه شائبة البخل بوجه من الوجوه ، فيستحيل أن يتخلف فيضه ، فقد ذهب فى زعمه هذا : إلى تنزيه الله تعالى ، ووصفه بصفات السكالات ، وتقديسه عن سمات النقص . ويتأيد بما ورد فى الأحاديث والآيات مما يدل على كمال جوده تعالى

ويقول : إن أول ما خلق الله تعالى شىء واحد وسماه « العقل الأول » ، ويتأيد بقوله — صلى الله عليه وسلم — :

« أول ما خلق الله العقل » ، ثم قال له : أقبل ! فأقبل ، وقال له : أدبر ! فأدبر . . . الخ أو كما قال .

ويذهب إلى أن النفوس مجردة ، وأنها ليست بأجسام ، ويتأيد بمثل

قوله تعالى : « قل : الروح من أمر ربى » ، ويريد من عالم الأمر ، ما يقابل عالم الخلق فى قوله تعالى : « ألا له الخلق والأمر » ، وأن عالم الخلق هو عالم التغير والتبدل : أى الجسمانيات ، وأن عالم الأمر هو عالم التقديس الذى يتبرأ عن شوائب الماديّات ، وبمثل قوله — صلى الله عليه وسلم — حكاية عن الله : « ما وسعنى أرضى ولا سمانى ، ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن » ، وبمثل قوله — صلى الله عليه وسلم : « إن الله خالق الأرواح قبل أن يخلق الأجسام بألفى عام » .

ويقول : إن صفات « الحق » تعالى عينُ ذاته ، بمعنى أنه ينشأ عن مجرد ذاته ما ينشأ عن ذاتٍ وصفة . ويتأيد بما جاء فى النصوص : إن الله هو الغنى المطلق عن كل ما سواه ، وبمثل قوله : « سبحان ربك رب العزة عما يصفون » ، وبما يدل على ذلك من كلام على بن أبى طالب (١) .

والصوفى يقول : إن « الحق » تبارك وتعالى هو حقيقة الحقائق ، وذات الذوات ، وأن مانراه من العوالم والأغيار ، فإنما هو من تجليات وشئون وأطوار ذات الحق . فليس العالم إلا عبارة عن الاعتبار المأخوذة بالإضافة إلى ذاتٍ واحدة ، القائمة بالغير قياما انتزاعيا ، وليس إلا الله وحده . ويتأيد فى ذلك بمثل قوله تعالى : « حتى نعلم الذين جاهدوا منكم » ، وبمثل قوله : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم » ،

(١) قال فى خطبته المشهورة بالغراء : فليست له صفة تنال ، ولا حد يضرب له فيه الأمثال .

ثم قال بعد : وتعالى الذى ليس له نعت موجود ، ولا وقت محدود . وله غير ذلك فى بعض أدعيته ومخاطباته لرب العزة .

ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم ،
وبمثل قوله تعالى : « هو الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن » ، وغير ذلك
من الآيات ، وبمثل قوله — صلى الله عليه وسلم — : « لو سقطت لبرة
من السماء على الأرض لسقطت على الله ، أو كما قال » ، وقوله حكاية عن
ربه : « لا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت
سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به . . . الحديث » ، وغير ذلك
من الأحاديث والآيات ، وفى الآثار ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله
فيه ، أو قبله ، أو بعده ، أو معه . كل واحد ينسب إلى واحد من الخلفاء
الأربع أنى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى . على ما فى الأحاديث من ضعف
الإسناد أو غير ذلك .

ويقول إن شئون الحق تبارك وتعالى لازمة لذاته ، ولبس بينه
وبينها بون ، ويستند إلى ما جاء فى النص من قوله تعالى : « لا إله إلا هو » ،
فيقول : إن الألوهية تستلزم مألوها . والحق إله أزلا وأبداً ، فشئونه
لازمة لذاته أزلا وأبداً ، وبما جاء فى لسان الشرع مما يدل على الصفات
المستلزمة لدوام التشأنات والظهور على ما بينوه فى كتبهم .

ويقول كما يقول الحكيم : إن « الحق » قد تنزل من مرتبة وحدته
بتنزل تنزيهى بالأشرف فالأشرف ، وإن التنزل الأول : هو العقل الأول ،
والقلم الأعلى ، والحقيقة المحمدية ، ويستشهد على ذلك بأحاديث وردت بكل
ذلك ، وغير ذلك ، مما هم عليه : يستندون فيه إلى أحاديث ، وآيات ، بعد
تسديد المدعى ببراہین عقلية عند الفيلسوف والصوفى ، وإشراقية عند
الصوفى ، ووصول علمهم إلى أعلى درجات اليقين فى زعم كل ، ويرون

أنهم في ذلك مطابقون لما كان عليه النبي وأصحابه .

والمعتزلى يقول : إن عذاب العاصى ونعيم المطيع واجب ، ويستند إلى مثل قوله تعالى : « كتب ربكم على نفسه الرحمة ... الآية » ، وكان حقا علينا ننجى المؤمنين ، ، و « من يعمل سوءً يجزبه » ... إلى غير ذلك من الآيات الدالة على واقعية الوعد والوعيد . والأحاديث متضافرة على ذلك .

وبقول : إن من الواجب أن يفعل الله ما هو الأصلح لعباده ، ويستند إلى مثل قوله : « ولا يظلم ربك أحدا » ، وبالأحاديث الدالة على أن الله تعالى ما أراد بعباده إلا ما هو خير لهم .

ويقول : إن الله لا يرى ، ويستند إلى مثل قوله تعالى : « لا تدركه الأبصار » .

وينكر الشفاعة ، ويستند إلى مثل قوله : « لا تنفعهم شفاعة الشافعين » ، « ولا خلة ولا شفاعة » ، « ولا تجزى نفس عن نفس شيئا » ... إلى غير ذلك .

والسنى يقول بنقيض ذلك ، ويستند إلى مثل قوله : « ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ، وقوله : « له الحكم » ، وبمثل « وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة » ، والحديث : « إنكم لترون ربكم ... الخ » وبمثل قوله : « إلا من أذن له الرحمن » .

ويقول المعتزلى : إن أفعال المسكفين الاختيارية صادرة عنهم بما جعل الله فيهم ، ويستند إلى مثل قوله : « جزاء بما كانوا يعملون » ، « ذلك بما قدمت أيديكم » ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره » ، « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » ... إلى غير ذلك من الآيات الدالة على إسناد الأعمال إليهم .
ويزعم أن أكثر النصوص القطعية والظنية جاءت على هذا المعنى .

والسني يقول : إن الأفعال ، اختيارية واضطرابية ، صادرة عن الله تعالى ابتداءً بلا واسطة . ويستند إلى مثل قوله : « خلقكم وما تعملون » ، وقوله : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم » ، وبقوله : « هل من خالق غير الله ؟ » ، و « لا إله إلا هو ، خالق كل شيء » ، ... وغير ذلك .

والشيعي يستدل على تفضيل « علي » ، على سائر الصحابة بمثل قوله - صلى الله عليه وسلم - « من كنت مولاه فعلي مولاه » ، والنبي مولى جميع الأمة .

والسني يستدل بمثل قوله : « ما طلعت الشمس على أحد بعد النبيين أفضل من أبي بكر » ، أو كما قال ، ... وغير ذلك من الأحاديث الدائرة بين الفرقتين .

وإن المجسمة يستشهدون بمثل قوله : « يد الله فوق أيديهم » ، و « الرحمن على العرش استوى » ، و « وجاء ربك » ، و « إلا أن يأتيهم الله ظلل من الغمام » ، ... وغير ذلك . وفي الأحاديث : « إن الله ينزل إلى سماء الدنيا » ، و « قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » ، ... وغير ذلك .

ولا نطيل بذكر استدلالات فرق هذه الملة . وقد أوضح كل مقرر رأيه عليه ببراهين عقلية ، وسمعية ، تُطلب من كتبهم .

وليس لنا الآن غرض بتعلق بتحقيق ماهو الحق في الواقع ؛ بل ذلك يأتي في الكتاب .

وكل ، بعد إقامة برهانه على مدعاه ، يذهب فيجد ماهو عليه مطابقاً لما كان النبي عليه وأصحابه فيحكم بذلك . ويحكم بأن غيره ليس كذلك ، خصوصاً طائفة الصوفية ، والحكام الإسلاميين ، والأشاعرة . فإنهم يدققون غاية التدقيق في التطبيق على ما كان عليه النبي وأصحابه .

وكل طائفة منهم متى رأت من النصوص ما يخالف ما اعتقدت أخذت

في تأويله وإرجاعه إلى بقية النصوص التي تشهد لها . فكلٌّ يبرهن على أنه
الفرقة الناجية المذكورة في الحديث ، وكلٌّ مطمئن بما لديه ، وينادى نداء
الحق لما هو عليه . والوقوف على حقيقة الحق في ذلك يكون من فضل الله
تعالى وتوفيقه .

فإن للناظر أن يقول : يجوز أن تكون الفرقة الناجية الواقعة على
ما كان عليه النبي وأصحابه قد جاءت وانقرضت ، وأن الباقي الآن من
غير الناجية .

أو أن الفرق المرادة لصاحب الشريعة لم تبلغ الآن العدد ، وأن الناجية
إلى الآن ما وجدت وستوجد .

أو أن جميع هذه الفرق ناجية ، حيث إن السكل مطابق لما كان عليه النبي
وأصحابه من الأصول المعلومة لنا عنهم ، كالألوهية ، والنبوة ، والمعاد .
وما وقع فيه الخلاف فإنه لم يكن يُعلم عنهم علم اليقين ، وإلا لما وقع فيه
اختلاف ، وأن بقية الفرق ستوجد من بعد ، أو وجد منها بعض لم يُعلم ،
أو علم : كمن يدعى ألوهية عليٍّ مثلاً كفرقة « النصيرية » .

وموجب هذا التردد أنه مامن فرقة إلا ويجدها الناظر فيها معضدة
بكتاب ، وسنة ، وإجماع ، وما يشبه ذلك ، والنصوص فيها متعارضة من
الاطراف . وما يسرني ما جاء في حديث آخر : أن الهالك منهم واحدة .

وبالجملة فتحقيق الفرقة الناجية من جهة الاعتقاد - كما هو الموضوع - على
رأى هذه الفرق التي تدعى أن كلا منها الفرقة الناجية ، وأن غيرها الهالكة ،
مشكلٌ من وجوه .

أولاً : أننا لم نعلم بما كان عليه النبي وأصحابه إلا أن للعالم صانعاً في غاية

الكمال، مُبرأ عن جميع النقائص، وأنه عالم قادر مرید سمیع بصیر... إلى غير ذلك من الصفات الكمالية، وأن المعاد حق، وأن النبي صادق فيما أخبر به. وهذا القدر أمر اتفق عليه جميع الفرق، إلا أن يكون وثنيًا أو كنايةً متعصبًا. فعلى هذا ليس المخالف لما كان عليه إلا جاحدٌ وجود الحق، أو جاحدٌ كمال من كالاته مع علمه بأنه كمال، أو مكذبٌ النبي في شيء مما جاء به مع علمه بأنه قد جاء به. أما من كان مقصده الكمال، والتزييه، والوقوف على الحق وصدق القرآن، وعلم أن ما جاء به النبي فهو حق فهو على ما كان عليه النبي وأصحابه، حذو القد بالقد. ومن خالف في شيء من ذلك فليس من أمة الإجابة في شيء. وهو ظاهر.

وأما ما افرقت فيه الطوائف من كون الصفات عين الذات، أو غير الذات، أولا هذا ولا ذاك، وأن الله يمكن أن يرى أو لا يمكن، وأن العالم حادث بالزمان وبالذات، أو بالذات فقط، وأن الحسن والقبح عقليان أم لا... إلى غير ذلك من التفاصيل — فهذا شيء لم يرد فيه عن النبي وأصحابه شيء حتى يُحفظ عنهم. وإنما مرجع هذا إلى الاستدلال. ولا فرق بين دليل ودليل في جواز تطرق الخلل والخطأ..

فإن قلت: إن كلام الله وكلام النبي مؤلف من الالفاظ العربية، ومدلولاتها معلومة لدى أهل اللغة، فيجب الأخذ بحاق مدلول اللفظ كان ما كان. قلت حينئذ لم يكن ناجيا إلا طائفة المجسمة، الظاهريون القائلون بوجوب الأخذ بجميع النصوص، وترك طريق الاستدلال رأسا، مع أنه لا يخفى ما في آراء هذه الطائفة من الاختلال، مع سلوكهم

طريقا ليس يفيد اليقين بوجهه ، فإن للتخاطبات مناسبات ترد بمطابقتها لا تسكاد تعلم إلا للقائل .

ومن ثم كان التحقيق : أن الألفاظ لا تفيد اليقين بمدلولاتها لكثرة طرق الاحتمال ، فلا سبيل إلا إلى الاستدلال وتأويل ما يبدو بظاهره نقصا إلى ما يفيد السكال . وإذا صح التأويل للبرهان في شيء صح في بقية الأشياء ، حيث لا فرق بين برهان وبرهان ، ولا لفظ ولفظ .

فليس لفرقة من الفرق المجوزة لتأويل لفظ أن تدعى أنها الناجية دون الأخرى بهذا الحديث ، فإن السكال متفق فيما عليه النبي وأصحابه ، والخلاف إنما يرجع إلى أن الواقع ما هو ؟ فصاحب البرهان المطابق للواقع هو الحق ، وغيره المبطل . وليس كل محق في قضية محققا في أخرى ، بل قد يحق في أمر ، ويخطئ في آخر . فلا يصح التحزب وادعاء الطائفة ، بل لا بد أن يدور الأمر على الواقع حيث كان بطريق البرهان .

وحاصل هذا الوجه : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يُطْلَع أحدًا على دقائق معارفه في مقام الألوهية وعالم الربوبية ، ولا على مراتب عرفانه ، فكيف يمكن التطلع إلى مثل هذا الأمر الخفي الذي لا يعلمه إلا الله تعالى ورسوله ، حيث إنه مما يتعلق بالباطن التي بيننا وبينها حجاب أي حجاب . وإنما وصل إلينا من شرعه - صلى الله عليه وسلم - ما يُصرِّح بثبوت الإلهاب ، والنبوات ، والمعاد بأقوال مقدسة تحتل الخل على كثير من المعاني ، كما حملها الناظرون ، كل على حسب اعتقاده . فأين السبيل ؟ فما بقي مما عليه النجاة إلا ما به الانفاق . وتأمل ! لعلك تقف على غير ما أقول ، لكن بطريق الجد والإنصاف .

وثانياً: أن كل فرقة تدعى اليقين فيما هي عليه، والرجوع عما هو يقين من المحال عندهم، وإلا لزم كونه غير يقين والفرض أنه يقين فكيف تدعى كل طائفة أن غيرها يجب أن يكون على ما عليه نفسها مع أنه غير ممكن؟. فإن كانت تقول: إن برهان الغير بغير يقين! فنقول: إن المحقق الناظر يستوى لديه جميع الآراء، حيث إن كلا يستند إلى البرهان، فما بقي بالنسبة إلى الواقع رأى أولى من رأى في القبول، فإن كلاً يُشككك الآخر في يقينه. اللهم إلا بتقير فيدخل تحت الحكم. وأيضاً إن أمكن اقتلاع يقين، فقد أمكن اقتلاع آخر فينجر إلى سفسطة، وعدم وثوق برهان، فلا ما جأ إلا أن الجميع لما انفق فيما جاء في لسان الشرع صريحاً من الأمور الثلاثة المتقدمة فقد صار ناجياً، أو أنه يجب طرح جميع البراهين بين أيدي النظر وأخذ المقبول منها، وتزييف المنكر، بعد اتفاق الكل في ذلك. وحينئذ فقد وقع الصلح بين الكل وذهب التحزب. وهذا سبيل حق، ولكن لم يقع، ومدعيه يُسكَّد به تحزبه.

وثالثاً: كل فرقة تعتقد أمراً خاصاً في مقام الألوهية، والنبوة، والمعاد. فإن كان كل مالم يطابق الواقع في زعمهم فهو المخالف للواقع في نفس الأمر، وكل ما كان كذلك فهو نقص في جناب الألوهية فإنه إما إثبات مالم يكن، أو نفي ما يجب أن يكون، وكلاهما نقص فيكون كفراً. فلا وجه لهم في حكمهم بأن بعض الطوائف غير كافر وإنما هو فاسق؛ بل يجب أن يحكموا بأن كل ما خالف الواقع فهو كفر. فكل فرقة لا بد أن تحكم بكفر الأخرى. وإن لم يكن ما يخالف الواقع في زعمهم مخالفاً للواقع في

نفس الأمر ، أو لم يكن من النقص في شيء ، فلا وجه لتفسيق المخالف والحكم بأنه في النار .

ورابعا : أنا لا نجد طائفة منهم متفقة على كلمة واحدة ، بل أصحاب كل رئيس يخالفونه في آرائه إلى آراء آخر . فإن كان مخالفة المعتقد تعدد كفرا أو فسقا بالنسبة إليه فرتكبها كافر أو فاسق وإن كان من حزبه فالهم يفرقون بين مخالفة ومخالفة ، كستفرقه أصحابنا بين خلاف الأشاعرة مع الماتريدية وبين خلافهم مع بقية الفرق ؟ وكذا ما نراه في غيرنا من سائر الفرق . مع أنه ربما كان الخلاف في مسألة هي من الأمهات كقول إمام الحرمين من أصحابنا في بحث الأفعال : إن الفعل يستند إلى قدرة العبد ، والقدرة إلى سبب آخر وهكذا . . . إلى أن تنتهي إلى مسبب الأسباب ، وقد برهن على ذلك ، وإن هذا الأمر ينسبونه إلى الحكماء في ظاهر قولهم . وغير ذلك كثير فاش في جميع الفرق لا يكاد يحصر . بل خلاف الأشعرى مع الماتريدي فيما يزيد عن ثلاثين أصلا ، وربما لا يتحقق هذا المقدار بينه وبين الفيلسوف مثلا ، فكيف أغضينا النظر عن هذا النزاع وحدقناه إلى نزاع آخر ليس بالمفيد ؟ فكان من الواجب أن يحكموا حكما عاما : إما بالتفسيق ، وإما بعدمه بدون تدليس .

وخامسا : قد أجمع أهل التحقيق من كل طائفة - خصوصا الشيخ الأشعرى - على أن المقلد في أصول دينه ليس بمستيقن ، وكل من ليس بمستيقن في الأصول فهو على ريب فيها ، وكل من كان كذلك فهو كافر . أما الكبرى فظاهرة ، وأما الصغرى فقد أقمنا عليها برهانا ، حاصله : أن المقلد إما أن يعلم حقيقة ما عليه مقلده ، أم لا . الثاني يستلزم المطلوب .

فإنه إذا لم يعلم حقيقة ما عليه مقلده فهو متردد فيه ، إذ ليس بعد العلم إلا التردد أو الجزم بالنقيض ، وعلى الأول إما أن يعلم الحقيقة بنظره أو بتقليد آخر ، على الثاني ننقل الكلام إليه ويتسلسل . . . وعلى الأول قد صار مجتهدا ناظرا لا مقلدا ، وهو خلاف المفروض . وليس بطلان التسلسل ههنا لما يبرهنون عليه بل لاستلزامه عدم العلم ، إذ لم يصل إلى مابه يعلم . فإذا ن كل مقلد فليس بمستيقن ، بل ذلك يحده كل أحد . فإن كثيراً من الصلحاء الذين يدعون الدين تأتهم الشكوك من بين أيديهم ، ومن خلفهم ، ويزيلونها عنهم بالإعراض والاشتغال بأفكار آخر . لكن ذلك لا ينفعهم ، فإنه قد وقر في نفوسهم الزبغ . فإذا تعطلت الحواس بدا لهم ما كانوا يخفون ، وهو سوء الخاتمة والعباد بالله تعالى .

فليحذر الراغب إلى الله تعالى من أمثال هذه الورطات التي يزينها لديه شيطانه ، بل يجب عليه أنه كلما عرض له أمر ذهب خلفه : فإن كان حقا تبعه ، وإن كان باطلا دفعه . فإن كان التقليد كفراً عندهم ، كما هو الواقع ، فكيف يصح منهم الإلجاء إلى قضايا خاصة خاطبوا عليها وتعارفوها فيما بينهم ، ويزعمون أن هذا هو الحق الواقع ؟ كلا بل كل ذلك تعصب من أتباع كل رئيس ، وأخذ بطريق اللجاج والعنت .

والحق الذي يرشد إليه الشرع والعقل : أن يذهب الناظر المتدين إلى إقامة البراهين الصحيحة على إثبات صانع واجب الوجود ، ثم منه إلى إثبات النبوات ، ثم يأخذ كل ما جاءت به النبوات بالتصديق والنسليم بدون فحص فيما تسكنه الالفاظ ، إلا فيما يتعاق بالاعمال على قدر الطاقة . ثم يأخذ طريق التحقيق في تأسيس جميع عقائده بالبراهين الصحيحة .

كان ما أدت إليه ما كان - لكن بغاية التحري والاجتهاد ،
ثم إذا قام من فكره إلى ما جاء من عنده ، فوجده بظايره ملائما
لما حققه فليحمد الله على ذلك ، وإلا فليطرق عن التأويل ، ويقول : آمنا
به ، كل من عند ربنا ، فإنه لا يعلم مراد الله ونبيه ، إلا الله ونبيه .

فعلى هذا المنوال يكون نسخ فيوم من الله برضوان ، حيث أسس
عمائده على السديد من البراهين ، واستقبل الأخبار الإلهية بالقبول والتسليم ،
وتناولها بقلب سليم . وإن أراد التأويل لغرض ، كدفع معاند ، أو إقناع
جاحد ، فلا بأس عليه إذا سلم برهانه من التقليد والتشويش . وهذا هو
دأب مشايخنا كالشيخ الأشعري والشيخ أبي منصور ، ومن مائلهم ،
لا يأخذون قولا حتى يسددوه ببراهينهم القوية ، على حسب طاقتهم .

وهذا هو ما يُعنى باسم السني ، والصوفي ، والحكيمي .
وكل متحيز مجادل فإنما يبغي العنت ، وتشتيت الكلمة ، فهو في النار .
وكل مقصر فعليه العار والشنار .

فاسلك سبيل السلف ، واحذر ! فقد خلف من بعدهم خاف ، ولا بد
في كمال النجاة ونيل السعادة الأبدية من أن ينضم إلى ذلك التخلي عن
الردائل ، والتخلي بالأخلاق السكاملة ، والأعمال الفاضلة ، ومن تلك
الأخلاق والأعمال تسكيل قوة النظر ، وارتكاب طريق العدل في كل
شئ ، إذ لا ريب في أن كل من خالف ما كان عليه النبي وأصحابه من :
الهمة ، والساد ، والعدل ، والإنصاف ، وسلوك طريق الاستقامة في جميع
الأخلاق والأعمال ، ونور البصيرة فيما يأخذ ويعطى ، فهو في النار
أو يظلم . ومن كان على ما كانوا عليه فهو في أعلى غرف الجنان .

وسالك هذا الطريق إما أن يكون سلوكه من قبل الالتفات إلى ما جاء في الكتاب والسنة ، وكلام أولى الفضل من الراشدين قديما وحديثا ، فذلك هو الحكيم العظمى ، والمؤمن المتوسط .

وإما أن يكون مع ذلك قد سلك بنفسه مدارج الأنوار ، ووقف على ما في ذلك من دقائق الأسرار ، حتى جلس في حياته هذه في مقعد صدق عند ملك مقتدر فهو الصوفي ، وهو صاحب المقصد الآسنى والمطلوب الأعلى ، وفي هذا مراتب لا تحصى ومراق لا تستقصى . وهذا ، وما قبله ، يشملهما اسم المؤمن الصادق .

فمن تحقق بهذا النور فله النجاة والخبور ، كان من كان ، فإن هذا هو المتحقق فيه ما كان النبي عليه وأصحابه . ولنسك القلم حيث إن المقصود هو الإيجاز ، والله أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب . فاسلك بنفسك طريق السداد وانظر فيما يسكون لك بعين الرشاد ، - اهـ

هذا هو رأى الشيخ محمد عبده في هذا الحديث ، وهو رأى فيه من سعة الأفق ، ورعاية الصدر ، ما يمكن أن يكون نواة للتسامح العام بين أهل القبلة الإسلامية .

(٣)

قيمة الحديث :

وإذا كنا قد ذكرنا رأى الأستاذ الإمام ، معجيين به ، لأنه يصور بعض ما يحول في النفس ، فإننا سنتحدث في الموضوع من زاوية أخرى ،

ونبين رأينا في تقسيم الفرق ، والثرّة في النهاية قد تكون أيضاً دعوة إلى التسامح الذي يجمع شتات الأمم ، ويكون لبنة في بناء وخطتها .

إن هذا الحديث الذي ذكره «الشهرستاني» ، وتقيد به ، وأورده «البخدادى» في «الفرق بين الفرق» ، وجعله صاحب «المواقف» في مستهل بحثه عن الفرق ، لم يتقيد به «ابن حزم» في «الفصل» ولم يتقيد به «الرازى» في كتابه «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» .

ثم إنه لم يُزوَّ في واحد من الصحيحين : البخارى ومسلم . حقيقة أنه قد رواه أبو داود ، والترمذى ، والحاكم وابن حبان ، وصححه عن أبي هريرة وكان لفظه عندهم : «افتقرت اليهود على إحدى ، أو اثنتين وسبعين فرقة ، والنصارى كذلك ، وتفرق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، كلهم في النار إلا واحدة» ، قالوا من هي يا رسول الله ؟ قال : « ما أنا عليه وأصحابى » .

ولكن بما يدعو إلى الارتياح ويثلج الصدور ؟ أن الشعرائى في ميزانه قد روى من حديث ابن النجار ، وصححه الحاكم بلفظ « غريب » ، وهو : « ستفرق أمتى على ثيف وسبعين فرقة ، كلها في الجنة إلا واحدة » . وفي رواية عن الديلمى : « الهالك منها واحدة » .

وفي هامش الميزان عن أنس عن النبى - صلى الله عليه وسلم - بلفظ : « تفرق أمتى على بضع وسبعين فرقة ، كلها في الجنة إلا الزنادقة » .

وما في هامش الميزان هذا ، مذكور في تخريج أحاديث مسند الفردوس
«للحافظ بن حجر» ، ولفظه : « تفرق على بضع وسبعين فرقة ، كلها في الجنة
إلا واحدة ، وهي الزنادقة » أسنده عن أنس .

قال صاحب كشف الخفاء :

« ولعل وجه التوفيق ، أن المراد بأهل الجنة في الرواية الثانية ولو
مآلاً . فنأمل . »

(٤)

رأبنا في تقسيم الفرق :

وإذا كان الأمر كذلك فيما يتعلق بهذا الحديث ، فإن رأينا الخاص
فيما يتعلق بافتراق الأمة . يهدف إلى التمييز بين نوعين من الافتراق :
نوع هو « أحزاب دينية » ، ونوع هو « فرق دينية » .

✓ الأحزاب الدينية :

أما الأحزاب الدينية فلا شأن لها — باعتبارها أحزاباً — بالعقائد
إلا عرضاً ، وأما الفرق الدينية ، فإنه لا شأن لها — باعتبارها فرقاً —
بالحكم إلا عرضاً .

والأحزاب الدينية : هي « الشيعة » ، و« الخوارج » .

والفرق الدينية هي : — بحسب الترتيب الزمني — « المشبهة » ، و« المعتزلة » ،

والأشاعرة ، و« مدرسة ابن تيمية » .

وهذا التقسيم في رأينا : يتمشى مع طبيعة الأشياء ، إذ الأحزاب الدينية نشأت حول الإمامة ، وبسببها ، وأما الفرق الدينية ، فإنها نشأت من التفكير في الدين ، وقد استقلت كل فرقة ، برأى يتصل بالعقيدة ، يخالف رأى غيرها .

✓ ونريد أن نزيد الأمر وضوحاً : يقول الشيخ « محمد الحسين آل كاشف الغطاء » في كتابه « أصل الشيعة وأصولها » .

✓ « إن أهم ما امتازت به الشيعة عن سائر فرق المسلمين : هو القول بإمامة الأئمة ، ... وهو فرق جوهرى أصلى ، وما عداه من الفروق فرعية عرضية ، كالفروق التى تقع بين أئمة الاجتهاد ، ... كالخنفى والشافعى وغيرهما ، وهذه الإمامة يقول عنها ابن خلدون :

« وقصارى أمر الإمامة : أنها قضية مصالحة إجماعية ، ولا تلحق بالعقائد ،

✓ ونحن نتفق كل الاتفاق مع ما يراه « الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء » ،

فى أن الأمانة هى المميز الجوهري للشيعة ، ونتفق مع ابن خلدون فى أن الإمامة ليس مثلها فى ناحية العقيدة ، كمثل الإيمان بالله أو برسله ، أو بالمعاد ، إنها قضية مصلحة ؛ ومن هنا كانت الشيعة حزباً ؛ ولكنه حزب دينى : أعنى أنه يرى أن الأسرة العلوية خير من يقيم الدين على ظهر المعمورة ، وأنه يؤيدها من أجل الدين ، ولأنها صاحبة حق دينى فى الخلافة .

نقول إنها حزب وليست بفرقة ، ونحتكم إلى التاريخ فإذا به يحدثنا

أن « زيد ، بن « علي ، إمام « الزيدية ، تَلَمَّذَ في الأصول لـ « واصل ،
ابن « عطاء ، ... رأس المعتزلة ... مع اعتقاد « واصل ، أن جده ،
« علي ، بن « أبي طالب ، — رضى الله عنه — (في حروبه التي جرت بينه
وبين أصحاب الجمل وأهل الشام) ما كان على يقين من الصواب ، وأن أحد
الفريقين منهما كان على الخطأ لا بعينه . فاقْتَبَسَ منه الاعتزال . وصارت
أصحابه كلهم معتزلة ، اهـ .

الزيدية إذا كلهم معتزلة . أم شيعية أم معتزلة ؟ إنهم شيعية باعتبار
حزبهم ، معتزلة باعتبار فرقهم ، ولا أظن أنه يمكننا تفسير الأمر على
غير هذا .

والإمام أبو حنيفة معروفة عقيدته : إنه من أهل السنة ، ومع ذلك
فإن « الشهرستاني ، يحدثنا : وكان « أبو حنيفة ، — رحمه الله — على بيعته
(بيعه محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب) ومن جملة
شيعته : حتى رفع الأمر إلى المنصور ، فحبسه حبس الأبد ، حتى مات
في الحبس . وقيل : إنه إنما بايع « محمد ، بن « عبد الله ، الإمام ، في أيام
« المنصور ، ، ولما قتل « محمد ، بالمدينة ، بقي الإمام « أبو حنيفة ، على تلك
البيعة ، يعتقد موالاة أهل البيت ، ورفع حاله إلى المنصور ، فتم عليه ماتم .
ويحدثنا « أبو الفرج ، الأصفهاني في كتابه « مَقَاتِلَ الطالبيين ، : أن
أبا حنيفة كان يوالى « زيدا ، ويناصره ، حتى لقد أرسل إليه يقول : إن لك

عندى معونة وقوة على جهاد عدوك ، فاستعن بها أنت وأصحابك
في الكُراع^(١) والسلاح .

ويروى صاحب الكشف : « وكان أبو حنيفة يفتي سرّاً بوجوب
نصرة زيد بن علي ، وحمل المال إليه ، والخروج معه على اللص
المنقلب المتسمى بالإمام والخليفة » .

أكان أبو حنيفة سنياً أم كان شيعياً ؟ لقد كان سنياً في عقيدته ، شيعياً
في ميوله وحزبيته .

وكان ابن إسحاق ، صاحب السيرة المشهور ، يرمى بالشييع ، والقول
بالقدر ، والشييع حزبية ، والقول بانقدر عقيدة .

بل إن الأمر ليصل إلى أن تجد شخصاً شيعياً الحزب معتزلاً بالعقيدة
أو سنياً ، شافعي المذهب أو حنفي .

يقول الشهرستاني ، عن فرق الشيعة : « وهم خمس فرق : كيسانية ،
وزيدية ، وإمامية ، وغلاة ، وإسماعيلية . وبعضهم يميل في الأصول
إلى الاعتزال ، وبعضهم إلى السنة ، وبعضهم إلى التشبيه^(٢) » . فليست
الشيعة إذاً فرقة دينية وإنما هي حزب ديني .

والخوارج إنما خرجوا على علي بن أبي طالب ، — رضى الله عنه — لا لأنه
تحدث عن الله سبحانه وتعالى ، أو عن صفاته بما لا يرضيهم ، أو بما يخرجهم

(١) الكراع : اسم يجمع الخيل . (٢) الشهرستاني في الملل والنحل .

عن حظيرة الإسلام ، ولا لأنه أنكر نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ،
أو طعن فيه ، أو أنكر المعاد ، كلا ، وإنما خرجوا عليه ، لأنه قبل التحكيم .
وقد كونوا - في مقابل حزب الشيعة - حزناً معارضاً يستل السيف
ويمتشق الحسام .

لم يكن بين الشيعة والخوارج خلاف في الإيمان بالله وملائكته وكتبه
ورسوله واليوم الآخر ، ولم يكن بينهم خلاف في الصلاة والزكاة والصيام
والحج ، وقد تركز الخلاف بينهم وتباور في شخصية الإمام «علي» وحدها
تقريباً ، فرأى فريق أن سياسته ضلال وانحراف ، أدت به إلى الكفر ،
ورأى فريق أن سياسته هدى ورشاد تؤدي ، لو اتبعت ، إلى الخير
كل الخير .

لا يمكننا أن نسمى مثل هذا الاختلاف : اختلافاً في أصول العقيدة
يقول الشهرستاني : « وانقسمت الاختلافات بعده » بعد الإمام «علي» ،
إلى قسمين : أحدهما الاختلاف في الإمامة ، والثاني الاختلاف
في الأصول ، اهـ .

الاختلاف في الإمامة . كما يرى «الشهرستاني» ، وكما يرى «ابن خلدون» ،
وكما يرى غيرهما ليس اختلافاً في أصل من أصول الإسلام .

والخوارج ، إذأ ، على هذا الوضع ، أيضاً ، ليسوا بفرقة دينية ،
وإنما هم حزب ديني مثلهم في ذلك مثل الشيعة سواء بسواء .

الحكمة في هذا التقسيم :

قد يقول قائل : وما هي الحكمة التي ترجوها من وراء هذا التقسيم ؟

أما هذه الحكمة فذات شقين :

أولاً : أن هذا التقسيم يتمشى مع طبيعة الأشياء : لما رأينا من أن الاختلاف ليس على أصل من أصول الدين .

ثانياً : إذا اعتبرنا الشيعة حزبا — كما هو الواقع — فإن الجدل بينهم وبين غيرهم ، لا يتجه وجهة دينية بحتة ؛ وينتج عن ذلك أن حدته — من الناحية الدينية — تخف كثيراً ، فلا يرمى بعضهم بعضاً بالكفر ، والألحاد ، والزندقة .

يقول الشهرستاني بحق :

وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة ، إذ ما مثل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة في كل زمان ، اهـ .

إنها قاعدة دينية فرعية ، وليست أصلاً من أصول الدين الأساسية الجوهرية ، ومع ذلك لم يسلم سيف في الإسلام في كل زمان مثل ما سل من أجلها : ولكنها الدنيا ، ولكنها الأهواء !!

قال صاحب الأغاني :

قال الهيثم : ثم إن ابن الزبير ، مضى إلى صفية ، بنت أبي عبيد ، وزوجة عبد الله ، بن عمر ، فذكر لها أن خروجه كان غضباً

لله تعالى ورسوله — عليه السلام — « والمهاجرين والانصار ، من أئمة معاوية ، وابنه وأهله بالفيم ، وسألها مسأله : أن يبايعه ، فلما قدّمت عشامه ذكرت له أمر ابن الزبير ، واجتهاده ، وأثنت عليه وقالت : ما يدعو إلا إلى طاعة الله عز وجل ، وأكثر القول في ذلك . فقال لها : أما رأيت بَغَلات معاوية ، اللواتي كان يحج عليهن الشَّهْب ؟ فإن ابن الزبير ما يريد غيرهن ١١١ هـ

إنها بَغَلات معاوية الشهب ، المحلاة بالسروج المذهبة ، إنها هي مطمح المتطلعين للإمامة ، وهي أصل النزاع ، وأساس الداء ، إنها الدنيا ، كما قلنا ، وإنها الأهواء .

ازالة لبس :

ونريد أن نعيّل بإزالة لبس قد يتجه إلى الذهن : ذلك أننا لا نريد من كلمة الشيعة ، هذه الأهواء التي كانت تشور فجأة في بعض الرموس التي فقدت الاتزان المنطقي ، ثم تندثر وتنتهي كأن لم تغن بالأمس ، فلا يبقى لها من أثر إلا صداها البغيض ، والشيعة أنفسهم يتبرءون منها .

إننا لا نريد بالشيعة : السبئية ، أو الخطابية ، أو ما شاكلهما من الفرق الغالية ، وإنما نقصد من الشيعة ، تلك الأحزاب التي بقيت إلى الآن كثيرة الاتباع ، منتشرة في أقاليم عدة ، وهي التي تمثل حقيقة الشيعة ، ونعني : الإمامية والزيدية ، أما الاسماعيلية ، فلا ندخلها في زمرة الشيعة ، ولنا فيها رأى سنحدث عنه في موضعه إن شاء الله تعالى .

المرجئة :

وأما المرجئة: فأنها، في رأينا، ليست بحزب ديني، وليست بفرقة دينية، وإنما هي « نزعة »، إنها نزعة إلى السلامة، إن المرجعي لا يريد أن يتورط في حزب، ولا يريد أن يبذل مجهوداً في تأييد، أو في معارضة؛ إنه لا يريد أن يمتشق السيف مؤيداً أو مناهضاً؛ إنه يحب السلامة، وهو منصرف عن كل ما يتطلب منه مجهوداً، سواء أكان هذا المجهود علياً نظرياً، أم كان عملياً حريياً.

الجهمية :

أما الجهمية: فإنها شذوذ في الرأي، ونشاز في التفكير. إنها ليست بنصية، لأنها تقول بالتعطيل، وليست بعقلية، لأنها تقول بالجبر. والانسجام العام مفقود بين أجزائها، فهي مذهب مضطرب، متأرجح، ولذلك لم يسُد كفرقة، وبقي « فكرة » يعمل « جهم » على نشرها، فلا يكاد يجد صدى لما يقول.

ورغم محاولة بعض مؤرخي « الملل والنحل » من عدها فرقة، افترقت إلى فرق، فإنها لم تسكد تتجاوز رأس « جهم ». وسنتحدث عنها كحلقة « فردية » من حلقات التفكير الإسلامي.

الفرو الديفية :

وإذا كانت الشيعة والخوارج أحزاباً دينية، وإذا كانت المرجئة نزعة إلى المسالمة، فإن المشبهة، والمعتزلة، والاشاعرة، والتمييزيين: أتباع ابن تيمية،

فرق دينية . وإذا كان السبب في ظهور الشيعة والخوارج ، هو الاختلاف على الإمامة ، فإن السبب في ظهور هذه الفرق هو البحث والجدل في العقيدة الدينية .

وإننا لنرى أن الفرق الإسلامية ، لا تخرج عن هذه الفرق الأربع . وهذا التقسيم على كل حال يتخذ موقف الفرق من العقل كأساس :

ذلك أن المعتزلة يعتمدون كل الاعتماد أو يكادون يعتمدون كل الاعتماد على العقل ، فذهبهم عقلي ، والنص ، لأنه يحتمل معان عدة ، يُؤوَّل بحسب ما يراه العقل .

وفي مقابل المعتزلة المشبهة : إنهم يأخذون بظاهر النص ، وبمعناه الحرفي ، ولا يعبتون بمجافاة المعنى الحرفي للعقل . ووصل بهم الأمر إلى ألا يقيموا وزناً لما في الأسلوب العربي من استعارة ومن مجاز . المعتزلة والمشبهة طرفان يكاد الاختلاف بينهما يكون شاملاً . وبين هؤلاء وأولئك الأشاعرة والتمييون .

والأشاعرة أقرب إلى المعتزلة فهم يستعملون العقل ولكن للنص عندهم منزلة كبيرة .

والتمييون يأخذون بالنص بيد أنه لا يمكننا أن نزعم اختفاء العقل والمنطق من مذهبهم .

أما واسطة العقد ، ودرة القلادة ، ومن تساموا بأنفسهم عن أن يتبعوا الهوى المردى ، أو الشكل دون الجوهر ، أو الهيكل دون الروح ، فإنهم

السلف : إنهم هؤلاء الذين ساروا على ما كان عليه النبي — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه — رضى الله عنهم — إنهم الفرقة الناجية حقاً ، لقد نجاهم الله من بلبلة الأفكار ، ومن ضلالات الوهم والخيال ، ومن مزالق الشك والاضطراب ، إنهم سلكوا الطريق السوى ، واستسلموا للوحي المعصوم ، وركنوا إلى الحصن الذى لا ينهار .

وهم الناجون « يوم لا يخزى الله النبي والذين آمنوا معه ، نورهم يسمى بين أيديهم وبأيمنهم » .

وليس معنى ذلك أن غيرهم من الفرق التى ذكرنا كافر ، كلا : حقاً إن المعتزلة والأشاعرة لا يسلم بعضهم — أحياناً — من بلبلة الفكر ، والشك ، والحيرة ، والاضطراب ، وإن محيط ما وراء الطبيعة لأعظم من أن يتمخر عبا به ساج ، وأعصف من أن يسلم فيه ، كل السلامة ، من خاض غمراته ، ولكن المعتزلة والأشاعرة يهدفون إلى تنزيه الله ، ويسعون سعياً حثيثاً إلى مرضاته ، ويجاهدون أعداء الدين جهاداً لا هوادة فيه ، ويسهرون الليل ويقومون النهار لإعلاء كلمة الله . وإن الله لا يضيع أجر العاملين .

ولم يكن ابن تيمية دسيسة على الإسلام ، إنه لم يكن يهودياً اعتنق الإسلام للتضليل بالمسلمين ، وإنما عاش طيلة حياته مناضلاً فى إخلاص عما يراه الحق ، ومثيرها شعواء على ما يراه بدعة ، ومجادلاً فى غير هوادة ولا لين هؤلاء الذين أداه تفكيره إلى أنهم انحرفوا عن الجادة . . .

ولكنه في رأينا ليس بسلفي فيما يتعلق بالصفات على الخصوص وربما اقتنع القارىء برأينا عند ما نتحدث عن مذهبه . ولكننا نعجل فنقول : إن شخصية تحملت من العذاب في سبيل مبدئها ماتحملة ابن تيمية هي شخصية مخلصة كل الإخلاص .

أما المشبهة فاستعدادهم في رأينا إنما هو استعداد الدهماء ، ولو وضعت الأمور في نصابها ، واتخذ كل شخص المهنة التي تليق به ، لما كان استعداد المشبهة يؤهلهم لأكثر من أن يكونوا عمالا ، أو صناعا ، إن استعدادهم لا يؤهلهم إلا إلى الحدادة أو النجارة ، أو حمل الفأس ، أو الضرب بالمعول . ولكن انحراف الأمور ، والاضطراب العام في نظام المجتمعات ، جعلهم في عداد العلماء ، وحمله الأقلام . ولما بينهم وبين الدهماء من تشابه ، أخذ بعض الدهماء يسرون خلفهم ، وقذفوا بهم إلى كرسى الرئاسة ، بل ومنصة القضاء وهم مع ذلك مخلصون : إنهم لا يبطنون كفراً ويظهرون إيماناً ، ولا يمكنك أن تطلب في الماء — كما يقولون — جذوة نار ، ولا يمكنك أن تطلب من طبيعة الدهماء الغليظة أن تتنسم الروحانية في صفاتها ، وأن تستشعر الحق ناصعاً وضاءً .

لا شك في أن طبيعة المشبهة هي طبيعة الدهماء : إنها طبيعة ذلك الشخص الذي وقف يستمع إلى درس من دروس المعتزلة ، في مسجد بدمشق ، فسمع الأستاذ يقول : إن الله سبحانه وتعالى ليس بفوق ولا بتحت ، ولا يمين ولا بشمال ؛ وليس بعرض ولا بجوهر ، فلم يستسغ عقله ذلك ، وخرج على عجل يُسْتَمْسِمُ : « إن هؤلاء يريدون أن ينقوا

أن في السماء إلهاً ، وأخذ يستعبد ويُخَوِّقِل .
ومع ذلك فهم مخلصون ، مؤمنون بالله ، وبرسالة سيدنا محمد ، وباليوم
الآخر ، وهم يصلون ويصومون ، ويؤدون الشعائر على وجهها ، ويتجهون
إلى القبلة كل يوم خمس مرات .

وإذا كانت طبيعتهم كما ذكرنا ، فإنه من المستحيل تحويلهم عنها في سهولة
وبسر ، ولا شك أن إخلاصهم مسجل لهم في الكتاب الذي لا يغادر صغيرة
ولا كبيرة إلا أحصاها .

ولا يعترينا شك في أن مُثَلَّ هؤلاء كَمَثَل تلك المرأة الساذجة التي
سئلت — فيما يروى — أمام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن الله
فقلت : « إنه في السماء » ، فقال رسول الله أتركها فإنها مؤمنة .
والفرق الغالية كلها خارجة عن موضوعنا ، سواء أكانت غالية الشيعة
أم غالية المشبهة .

(٥)

رأى ابن خلدون في تقسيم الفرق :

ونريد أن نستأنس في رأينا الخاص بهذا التقسيم ، بكلام مؤرخ شهير
هو ابن خلدون . قال في مقدمته ص ٣٢٥ — ٣٢٦ طبعة عبد الرحمن محمد :
« إن القرآن ورد فيه وصف المعبود بالتنزيه المطلق ، الظاهر الدلالة ،
من غير تأويل ، في آي كثيرة ؛ وهي سلوب كلها ، وصريحة في بابها :

فوجب الإيمان بها . ووقع في كلام الشارع - صلوات الله عليه - ، وكلام الصحابة والتابعين تفسيرها على ظاهرها . ثم وردت في القرآن آى أخرى قليلة توهم التشبيه ، مرة في الذات وأخرى في الصفات ؛ فأما السلف فغلبوا أدلة التنزيه : لكثرتها ، ووضوح دلالتها ؛ وعلّموا استحالة التشبيه ، وقضوا بأن الآيات من كلام الله : فآمنوا بها ، ولم يتعرضوا لمعناها ببحث ولا تأويل . وهذا معنى أقول الكثير منهم : « اقرءوها كما جاءت ، أى آمنوا بأنهم عند الله ، ولا تعرضوا لتأويلها ولا تفسيرها : لجواز أن تكون ابتلاء ، فيجب الوقف والأذعان له .

وشد لعصرهم مبتدعة اتبعوا ما تشابه من الآيات وتوغلوا في التشبيه ، ففريق شبهوا في الذات باعتقاد اليد ، والقدم ، والوجه ، عملا بظواهر وردت بذلك ، فوقعوا في التجسيم الصريح ، ومخالفة آى التنزيه المطلق ، التى هى أكثر موارد ، وأوضح دلالة : لأن معقولة الجسم تقتضى النقص والافتقار .

وتغلب آيات السلوب في التنزيه المطلق التى هى أكثر موارد وأوضح دلالة ، أولى من التعلق بظواهر هذه التى لنا عنها غنية ثم يفرون من شناعة ذلك بقولهم جسم لا كالأجسام . وليس ذلك بدافع عنهم : لأنه قول متناقض وجمع بين نفي وإثبات إن كان بالمعقولة واحدا من الأجسام ، وإن خالفوا بينهما ونفوا المعقولة المتعارفة فقد وافقونا في التنزيه ، ولم يبق ألا جعلهم لفظ الجسم إسما من أسمائه ، ويتوقف مثله على الإذن .

وفريق منهم ذهبوا الى التشبيه في الصفات كإثبات الجهة ، والاستواء ،
والنزول ، والصوت ، والحرف ، وأمثال ذلك ، وآل قولهم ، إلى التجسيم ،
فنزعوا مثل الأولين إلى قولهم : صوت لا كالأصوات ، جهة لا كالجهات ،
نزول لا كالنزول ، يعنون من الأجسام ، واندفع ذلك بما اندفع به الأول .
ولم يبق في هذه الظواهر إلا اعتقادات السلف ومذاهبهم ، والإيمان
بها كما هي : لا لا يَكِرُّ النفي على معانيها بنفيها مع أنها صحيحة ثابتة
من القرآن . .

ثم لما كثرت العلوم والصنائع ، وولع الناس بالتدوين والبحث في سائر
الأنحاء ، وألف المتكلفون في التنزيه : حدثت بدعة المعتزلة ، في تعميم هذا
التنزيه في آى السلوب ، فقضوا بنفى صفات المعاني من العلم ، والقدرة ، والإرادة ،
والحياة ؛ زائدة على أحكامها ، لما يلزم على ذلك من تعدد القديم بزعمهم .
وهو مردود بأن الصفات ليست غين الذات ولا غيرها . وقضوا بنفى
السمع والبصر لكونها من عوارض الأجسام . وهو مردود لعدم اشتراط
البنية في مدلول هذا اللفظ وإنما هو إدراك المسموع أو المبصر .

وقضوا بنفى الكلام لشبه ما في السمع والبصر ؛ ولم يعقلوا صفة الكلام
التي تقوم بالنفس : فقضوا بأن القرآن مخلوق ؛ بدعة صرح السلف بخلافها .
وعظم ضرر هذه البدعة . ولقتها بعض الخلفاء عن أئمتهم : فحمل الناس عليها ،
وخالف أئمة السلف فاستحل لخلافهم أيسار كثير منهم ودماءهم .

وكان ذلك سبباً لانتهاض أهل السنة بالأدلة العقلية على هذه العقائد

دفعاً في صدور هذه البدع. وقام بذلك الشيخ « أبو الحسن الأشعري » إمام المتكلمين، فتوسط بين الطرق، ونفى التشبيه وأثبت الصفات المعنوية، وقصر التنزيه على ما قصره عليه السلف، وشهدت له الأدلة المخصصة لعمومه، فأثبت الصفات الأربع المعنوية، والسمع، والبصر، والكلام القائم بالنفس، بطريق النقل والعقل. ورد على المبتدعة في ذلك كله، وتكلم معهم فيما مهدوه لهذه البدع من القول بالصلاح والأصلح، والتحسين والتقبيح، وكمل العقائد في البعثة وأحوال الجنة والنار، والثواب والعقاب.

وألحق بذلك الكلام في الإمامة لما ظهر حينئذ من بدعة الإمامية: من قولهم إنها من عقائد الإيمان، وإنه يجب على النبي تعيينها، والخروج عن العهدة في ذلك لمن هي له وكذلك على الأمة.

وقصارى أمر الإمامة أنها قضية مصلحة إجماعية، ولا تلحق بالعقائد: فلذلك ألحقوها بمسائل هذا الفن، وسموا مجموعته: « علم الكلام » اهـ.

ولعل القارىء قد لاحظ أن ابن خلدون في تعدادده للفرق. قد بين أولاً: رأى السلف،

ثم تحدث عن المشبهة في الذات،

ثم ذكر المشبهة في الصفات،

ثم ذكر المعتزلة ونشأتهم عند ما تقدمت العلوم والصناعات، وولع الناس بالتدوين والبحث،

ثم تحدث عن الأشاعرة،

ولم يتحدث عن الشيعة كفرقة ، ولا عن الخوارج ، ولا عن المرجئة ،
وبين أن الإمامة ليست من العقائد ، وإنما هي من الأمور المصلحية .

شيعة وخوارج هما أحزاب دينية .

ومرجئة هي نزعة .

وجهية هي فكرة فردية .

ومشبهة ، ومعتزلة ، وأشاعرة ، وتيميون : تلك فرق دينية .

والفرقة الناجية هي ما عليه الرسول وأصحابه ، إنها السلف ، إنها ناجية
من بلبلة الفسك ، ومن ضلالات الأوهام ، ومن زيغ العقول ؛ وهي تمثل
الاطمئنان التام والشهرستان ، يسميها « طريق السلامة » .

الفصل الرابع^(١)

مذهب السلف

(١)

الحائز في عهد الرسول :

كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المرجع في إزالة الحيرة من نفس الحائر ، وكان المسلمون يسألونه مستفسرين ، والمخالفون لدينه يسألونه معارضين ومتعنتين ومجادلين ، كانت هناك الأسئلة من كل نوع ، وكان الرسول - عليه السلام - يجيب في تلطف أحيانا ، وأحيانا في عنف ، أو سخرية لاذعة ، كل ذلك حسب ما يقتضيه المقام .

ولكن الرسول - صلوات الله عليه - كان يسكره المراء في الدين ، والجدل بين المسلمين ، وفي هذا المعنى رويت أحاديث كثيرة ، بعضها صحيح ، وبعضها حسن ، وبعضها ضعيف ، ولكنها في جملتها تثبت هذا المعنى : بحيث لا تدع للشك مجالا في موقف الرسول بالنسبة ، للجدل بين المسلمين في مسائل الدين . من هذه الأحاديث ما روى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : « خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أصحابه ذات يوم وهم يتراجعون في القدر ، فخرج مغضبا ، حتى وقف

(١) من مصادر هذا الفصل : الشهرستاني : الملل والنحل . الإمام الغزالي : الإحياء ، والجامع العوام . الإمام الرازي : أساس التقديس ،

عليهم ، فقال : يا قوم !! بهذا ضلت الأمم قبلكم ، باختلافهم على أنبيائهم ،
وضربهم الكتاب بعضه ببعض ؛ وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ،
ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضا . ما عرفتم منه فاعملوا به ،
وما تشابه فآمنوا به .

وعن أبي سعيد قال : « كنا جلوسا عند باب رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - نتذاكر ينزع هذا بآية ، وينزع هذا بآية فخرج علينا رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - كأنما يفقأ في وجهه حب الرمان فقال : يا هؤلاء
بهذا بعثتم ؟ أم بهذا أمرتم ؟ لا ترجعوا بعدى كفارا ؛ يضرب بعضكم رقاب
بعض ، رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبخاري ، وعن أنس مثله .
وقد روى هذا المعنى في كثير من الأحاديث ، على اختلاف بينها في
الطول والقصر ، والصحة والضعيف .

(٢)

موقف الصواب :

ورأى الصحابة - رضوان الله عليهم - : أن الله قد صرح بأنه أكمل
دينه ، وأتم نعمته على المسلمين ، فأخذوا أنفسهم بالتزام ما أتى به ، على
الوجه الذى أتى به ، وقد أثبت القرآن وجود الله ، وأثبت دليله ، فهم
يؤمنون بوجود الله ، وتطمئن نفوسهم إلى دليل القرآن على وجوده ،
وكذلك الأمر في وحدانية الله ، وقدرته ، وبقية صفاته .
وقد استفادوا القرآن في الاستدلال على رسالة الرسول ، فهم يثبتونها ،
ويستدلون بما استدل به القرآن .

وقد أثبت القرآن البعث وأقام عليه الدليل ، فهم يثبتونه ويقيمون عليه دليل القرآن .

يقتصر السلف ، إذأ ، في الاستدلال على معرفة الله ، ووحدايته ، وصدق الرسول - عليه السلام - وعلى اليوم الآخر ، على ما ورد في الكتاب الكريم ، ويصور الإمام الغزالي موقفهم هذا فيقول :

« أما الدليل على معرفة الخالق ، فمثل قوله تعالى : « قل من يرزقكم السماء والأرض ؟ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحي من الميت ؟ ويخرج الميت من الحي ؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله ، وقوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم ؟ كيف بنيناها ، وزيناها ، وما لها من فروج ؟ ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، وكقوله : « فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا ، وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا ، وقوله : « ألم نجعل الأرض مهادا ؟ والجبال أوتادا ؟ ، إلى قوله : « وجنات ألفافا ، وأمثال ذلك ، وهي قريب من خمسمائة آية ، جمعناها في كتاب « جواهر القرآن » ، بها ينبغي أن يعرف الخلق جلال الله الخالق ، وعظمته ، لا بقول المتكلمين : إن الأعراض حادثة ، وإن الجواهر لا تخلو عن الأعراض الحادثة ، فهي حادثة ، ثم الحادث يفتقر

إلى محدث ؛ فإن تلك التفسيرات ، والمقدمات ، وإثباتها بأدلتها الرسمية ،
يشرش على قلوب العوام ؛ والدلالات الظاهرة القريبة من الأفهام ، على ما في
القرآن ، تنفعهم ، وتسكن نفوسهم ، وتغرس في قلوبهم الاعتقادات الجازمة .
أما الدليل على الوحدانية : فيقتنع فيه بما في القرآن من قوله : « لو كان
فيهما آلهة إلا الله لفسدنا » ، فإن اجتماع المدبرين سبب إفساد أمر التدبير
وبمثل قوله : « لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا يتغوا إلى ذي العرش
سيلا » ، وقوله تعالى : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله » ،
إذا لذهب كل إله بما خالق ، ولعلنا نبغضهم على بعض .

وأما صدق الرسول : فيستدل عليه بقوله تعالى : « قل : لن اجتمع
الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله » ، ولو كان
بعضهم لبعض ظهيرا .

وبقوله تعالى : « فأتوا بسورة من مثله » ، وقوله تعالى : « قل : فأتوا
بعشر سورة مثله مفتريات » ، وأمثاله .

وأما اليوم الآخر : فيستدل عليه بقوله تعالى : « قال من يحيي العظام
وهي رميم ؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة » ، وبقوله تعالى :
« أيجنب الإنسان أن يترك مدى ؟ ألم يك نطفة من منى يمى ؟ » ،
إلى قوله تعالى : « أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟ » . ويقول :
« يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب » ،
إلى قوله : « فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت » ، إلى آخر الآيات .

وأمثال ذلك في القرآن ، فلا ينبغي أن يزداد عليه ^(١) .

إنهم : أى الصحابة — رضى الله عنهم — كانوا محتاجين إلى حاجة اليهود والنصارى في إثبات نبوة محمد — صلى الله عليه وسلم — وإلى إثبات الإلهية مع عبدة الأصنام ، وإلى إثبات البعث مع منكريه ، ثم ما زادوا في هذه القواعد التى هى أمهات العقائد على أدلة القرآن ^(٢) .

وما ركبوا ظهر اللجاج في وضع المقاييس العقلية ، وترتيب المقدمات ، وتحرير طريق المجادلة ، وتذليل طرقها ، ومنهاجها ، وكل ذلك لعلهم بأن ذلك مثار الفتنة ، ومنبع التشويش ^(٣) .

وأدلة القرآن : كالماء الذى ينتفع به الصبي الرضيع ، والرجل القوى ، وسائر الأدلة كالأطعمة التى ينتفع بها الأقوياء مرة ، ويمرضون بها أخرى ، ولا ينتفع بها الصبيان أصلاً ^(٤) .

فمن الجلى : أن من قدر على الابتداء فهو على الإعادة أقدر ، كما قال :
« وهو الذى يبدأ الخلق ثم يُعِيدُهُ وهو أَهْوَنُ عَلَيْهِ » .

وأن التدبير لا ينتظم في دار واحدة بمديرين ، فكيف ينتظم في كل العالم ؟
وأن من خلق علم ، كما قال تعالى : « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ » .

فهذه الأدلة تجري للعوام مجرى الماء الذى جعل الله منه كل شيء حياً ، وما أخذه المتكلمون وراء ذلك من تنقيح ، وسؤال ، وتوجيه إشكال ثم

(١) الجام العوام ص ٢٧ — ٢٨ طبعة منير (٢) المصدر نفسه ص ٣٠

(٤) ص ٢٩

(٢) ص ٣٠

اشتغال بحله فهو بدعة ، وضرره في حق أكثر الخلق ظاهر ، فهو الذي ينبغي أن يتوقى .

والدليل على تضرر الخلق به : المشاهدة والعيان ، والتجربة ، وما نثار من الشر منذ نبغ المتكلمون وفشت صناعة الكلام ، مع سلامة العصر الأول من الصحابة عن مثل ذلك .

ويدل عليه أيضاً : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والصحابة بأجمعهم ما سلكوا في الحاجة مسلك المتكلمين في تقسياتهم وتدقيقاتهم ، لا ليعجز منهم عن ذلك ، فلو علموا أن ذلك نافع لأطنبوا فيه ، ولخاضوا في تحرير الأدلة خوفاً يزيد على خوضهم في مسائل الفرائض ، اهـ .

وإذا عارضوا اليهود والنصارى عارضوهم بكلام الله سبحانه وتعالى ، في أوثق نص من نصوصه المنزلة ، وهو القرآن .

كان الأمر هكذا في زمن أبي بكر ، وفي زمن عمر ، وعند كل من النزم النهج الصحيح .

روى عن عمر ، رضى الله تعالى عنه : « أنه سأله سائل عن آيتين متشابهتين ؟ فعلاه بالدرة . كما أنه سأله سائل عن القرآن : أهو مخلوق أم لا ؟ فتعجب من قوله ، فأخذ بيده ، حتى جاء به إلى على — رضى الله عنه — فقال : يا أبا الحسن استمع ما يقول هذا الرجل قال : وما يقول يا أمير المؤمنين ؟ فقال الرجل : سأله عن القرآن : أخلق هو ، أم لا ؟ فوجم لها — رضى الله عنه وطأ رأسه ، ثم رفع رأسه وقال : سيكون لكلام هذا نبأ في آخر الزمان ، ولو وليت من أمره ما وليت ،

لضربت عنقه ، . رواه أحمد ، عن أبي هريرة (١) .

وهذا المذهب : مذهب اتباع القرآن ، والتزام ما جاء فيه ، والبعد عن
الجدل ، وعلم الكلام ، قد اتبعه الصحابة ، والتابعون ، وكبار الأئمة .

(٣)

موقف الأئمة من علم الكلام :

ولقد ذهب إلى تحريم علم الكلام والجدل في الدين ، الشافعي ، ومالك
وأحمد بن حنبل ، وسفيان وأهل الحديث من السلف .

قال : ابن عبد الأعلى - رحمه الله - : سمعت الشافعي - رضي الله عنه -
يوم ناظر حفصا الفرد ، وكان من متكلمى المعتزلة ؛ يقول : لأن يلقى الله
عز وجل ، بكل ذنب ما خلا الشرك بالله ، خير له من أن يلقاه بشيء من
علم الكلام .

ولقد سمعت من حفص كلاماً ، لا أقدر أن أحكيه . وقال أيضاً :
قد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننته قط ، ولأن يبتلى العبد بكل
مانهى الله عنه ما عدا الشرك ، خير له من أن ينظر في الكلام .

وحكى الكرايبي : أن الشافعي - رضي الله عنه - سئل عن شيء
من الكلام فغضب ، وقال : سل عن هذا حفصا الفرد وأصحابه ،

(١) إجماع العوام ص ٣٨ ط منير وهذه القصة على ما هي عليه يبدو
عليها أثر الصنعة ، وليكنها صنعة محكمة حتى إنها لتعبر عن منهج السلف حقاً
ولذلك ذكرناها .

أخزاعهم الله ... وقال أيضاً : لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من الأسد . وقال أيضاً : إذا سمعت الرجل يقول : الاسم هو المسمى أو غير المسمى فاشهد : أنه من أهل الكلام ، ولا دين له ، قال الزعفراني ، : قال الشافعي : حكى في أصحاب الكلام : أن يضربوا بالجرید ، ويطاف بهم في القبائل ، والعشائر ، ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام .

وقال أحمد بن حنبل : لا يفلح صاحب الكلام أبداً ، ولا نكاد نرى أحداً نظر في الكلام إلا وفي قلبه دَغَلٌ ... وقال : علماء الكلام زنادقة .

وقال مالك — رحمه الله — : رأيتَ إن جاءه من هو أجدل منه ، أيدع دينه كل يوم لدين جديد ؟ يعني : أن أقوال المتجادلين تتفاوت .

وقال مالك — رحمه الله — أيضاً : لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء . فقال بعض أصحابه في تأويله إنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أى مذهب كانوا .

وقال أبو يوسف : من طلب العلم بالكلام تزندق .

وقال الحسن : لا تجادلوا أهل الأهواء ، ولا تجالسوهم ولا تسمعوا منهم .

وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا . ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه ، وقالوا : ما سكت عنه الصحابة ، مع أنهم أعرف بالحقائق ، وأفصح بترتيب الالفاظ من غيرهم ، إلا لعلمهم بما يتولد منه

من الشر ، ولذلك : قال النبي — صلى الله عليه وسلم — هلك المنتطمعون ، هلك المنتطمعون ، هلك المنتطمعون ، أى المتعمقون فى البحث والاستقصاء ، واحتجوا أيضاً بأن ذلك ، لو كان من الدين لكان ذلك أهم ما يأمر به رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ويُعلم طريقه ، ويثنى عليه وعلى أربابه ؛ فقد علمهم الاستنجاء ، وندبهم إلى علم الفرائض ، وأثنى عليهم ، ونهاهم عن الكلام فى القدر ، وقال : أمسكوا عن القدر ، وعلى هذا استمر الصحابة — رضى الله عنهم — فالزيادة على الاستاذ طغيان وظلم ، وهم الاستاذون والقدوة ، ونحن الاتباع والتلامذة (١) .

(٤)

موقف السلف من مشكلة القدر :

ذلك : هو منهج السلف ، ومنهج من سار على طريقته ، بيد أنه عرض لهم بعض المشاكل ، منها مشكلة القدر ، ومشكلة الصفات .

أما مشكلة القدر : فإنه قد ورد فى القرآن آيات ربما تشعر بالجبر مثل : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » ، « ولا ينفعكم نصيحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم » ، « هو ربكم » ، وإليه ترجعون ، « من يريد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يريد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء . » وفيه آيات ربما تشعر بالاختيار : « فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء »

(١) الغزالي كتاب قواعد العقائد من إحياء علوم الدين .

فليس ككفره ، وقل : اعملوا فسيرى الله عملكم ، ورسوليه ، والمؤمنون ، ،
 لا يؤخذكم الله باللغو في أيمانكم ، ولكن يؤخذكم بما كسبت قلوبكم .
 ولكننا إذا تتبعنا الأحاديث ، وتبعنا منزع كبار الصحابة ، رأينا
 أن الاتجاه كان ينحون نحو الاعتقاد بأنه لا تطرف في العالم طرفة عين ،
 ولا تهب فيه نسمة هواء ، ولا يحدث فيه حادث : صغر أو كبر ،
 إلا بإرادة ، وتقدير من الله سبحانه وتعالى . لقد ملأت فكرة الألوهية
 قلوبهم ، وسيطرت على نفوسهم ، فاستسلموا لله خاضعين ، مؤمنين :
 بأن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، واستسلامهم هذا لله : هو نفسه
 الذى دعاهم إلى أن يعملوا ، وأن يجتهدوا فى أعمالهم ، وأن يعدوا لكل
 أمر عده ، وأن يتخذوا الأسباب : فيعدوا للأعداء ما استطاعوا من قوة ،
 ومن رباط الخيل ، ولم يمنعهم استسلامهم للقدر من أن يكونوا من كبار
 المكافحين لدينهم أوّلاً ، ولدنياهم ثانياً .

ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، ذلك حق ، ولكن الله أمرهم بالعمل ،
 وأمرهم بالسير فى الأرض والضرب فى منابها ، وأمرهم بالجهاد لإعلاء
 كلمة الله ، والسيطرة على أئمة الكفر ؛ إنهم لا إيمان لهم لعلمهم ينتهون .

هذا الموقف هو موقف الاستسلام لله ، وإذا أدركنا الدقة قلنا : إنه ليس
 موقف الجبر ، وليس موقف الاختيار ، وليس موقف الكسب : إنه
 موقف الاستسلام لله .

وتمثل هذا الموقف فيما يروى عن « على » — رضى الله عنه — قال :

« كنّا في جنازة ببيق الغرقد ، فأتى رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
فقدّم وقعدنا حوله ، ويده مخصّرة ، فجعل ينكت بها الأرض ، ثم قال :
ما منكم من أحد إلا وقد كُتِبَ مقعده من النار ، ومقعده من الجنة ،
فقالوا : يا رسول الله ، أفلا نتكل على كتابنا ؟ فقال : اعملوا ، فكل ميسر
لما خلق له ؛ أما من كان من أهل السعادة ، فيصير إلى عمل السعادة ، وأما
من كان من أهل الشقاء فيصير إلى عمل الشقاء ، ثم قرأ : « فأما من أعطى
واتقى ، وصدّق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى » .

وإذا أنعمنا النظر في هذا الحديث وجدنا فيه نوعاً من الغرابة ، أو نوعاً
من الطرافة ، وطرافته أو غرابته : آتية من أنه مَرَبَك للجبريين ، ومَرَبَك
للاختياريين ، ومَرَبَك للسكبيين : فصدره يتجه إلى الجبر ، وفيما ينلو يأمر
بالعمل ؛ وينتهي الحديث بآية قرآنية ، ترشد إلى أن تيسير الله الصراط
المستقيم للإنسان : إنما هو مترتب على الإحسان والتقوى ، والتصديق
بالحسنى ، ولكن الحديث في جملة : لا يرشد إلا إلى الاستسلام لله .

هذا الاستسلام على ما بيناه ، هو الذى يفسر : قول الرسول
— صلى الله عليه وسلم — في بيان الإيمان . . . « وأن تؤمن بالقدر خيره
وشره . . . » وهو حديث متفق عليه من البخارى ومسلم وغيرهما .

ويفسر قول « ابن عمر » — رضى الله عنهما — « وقد جاءه رجل فقال :
إن فلاناً يقرأ عليك السلام » لرجل من أهل الشام ، فقال ابن عمر : إنه
بلغنى : أنه قد أحدث التكذيب بالقدر ، فإن كان قد أحدث ، فلا تقرأ
منى عليه السلام .

وموقف ابن عمر في هذا : كموقف الرجل الذي يرى أن التشكيب بالقدر معناه عدم سيطرة فكرة الألوهية على النفس سيطرة تامة ، فكل من يكذب بالقدر ، لا يكون موقفه موقف الاستسلام التام لله سبحانه وتعالى . ونريد أن نوضح الفكرة : فنرى عمر — رضى الله عنه — دقيقاً كل الدقة ، حينما اعترض عليه أبو عبيدة ، وقد أراد أن يترك الأرض التي بها الطاعون : « أفرأى من قدر الله يا عمر ؟ » فقال : « أفرأى من قدر الله إلى قدر الله ، . كان « عمر » يؤمن بقدر الله ، وكان « أبو عبيدة » يؤمن بقدر الله ، ولكن لم يمنعهما هذا من اتخاذ الأسباب ، فقد كان « أبو عبيدة » قائد الجيوش ، لا تكاد عينه تذوق النوم إلا غرأراً : لأنه مشغول بتدبير أمر الجيش ، ولا يترك شيئاً من أحكام التدبير حتى ينتهي بالأمر إلى غايته ، وكان « عمر » هو الآخر لا يذوق النوم إلا لما : ليدبر أمر الأمة ، ومع ذلك فإنه حينما أته الطعنة المشثومة ، ودعه القضاء المحتوم ، كان يردد الآية الكريمة : « وكان أمر الله قدراً مقدوراً » .

إنه من البديهي أن الصدر الأول للإسلام : كان يؤمن بالقدر ، ويتخذ الأسباب ، وكان إمامه في ذلك الرسول — صلى الله عليه وسلم — الذي كانت حياته كلها استسلاماً لله سبحانه وتعالى ، فكانت لذلك إيماناً بقدره ، وجهاداً ، وتضحية ، وكفاحاً لا هوادة فيه ، حتى لقد كسرت ربايعته ، وجرحت ركبته ، وشج رأسه ، في غزوة أحد ، ورمى بالأحجار حتى سال الدم من عقبه في الطائف ، وهاجر من مسقط رأسه ، ومأنس نفسه

« مكة ، إلى « يثرب » : المدينة ، إنه في كل تصرفاته كان مستسلماً لله سبحانه وتعالى ، وذلك مذهب السلف جميعاً .

أظن أننا — بعد أن حددنا مذهب السلف هذا التحديد — لسنا بحاجة إلى الرد على من يزعم أن المسلمين قوم متواكلون ، وتواكلهم أئامهم من دينهم . إن المسلمين حينما اتبعوا أمر دينهم ، واستسلموا لله في الصدر الأول : دكوا معاقل القياصرة ، وحطموا حصون الأكاسرة ، لإعلاء كلمة الله ؛ واتخذوا — كما أمرهم دينهم — لكل شيء سبيلاً ، وأعدوا ما استطاعوا من قوة ، ومن رباط الخيل ، وكأنما قد صغرت رقعة الدنيا ، فطووها في فتوحهم طياً ؛ ولم يمض زمن طويل حتى فتحت بلاد الفرس كلها ، وانتزع العرب من الإمبراطورية الشرقية ، أحسن ولايتين فيها : وهما « الشام ومصر » . هذا ما يقوله « ديور » المستشرق الألماني عن المسلمين الأول : أى المسلمون حينما كانوا يتبعون الإسلام كما أنزل . أما المسلمون المتواكلون ، فالإسلام منهم براء .

(٥)

موقف السائق من الأخبار الموهمة للتشبيه :

ولقد أثارَت الأخبار الموهمة للتشبيه : كاليد ، والقدم ، والتزول ، والاستواء ، وما يجري مجراها ، كثيراً من الجدل ؛ وإنها إلى الآن ، لا تزال تثير الجدل بين أنصار ابن تيمية ، وأنصار الأشعرى . وإن هذا الموضوع ليشير العواطف في قوة ، لأنه يتصل بالإلهية . وقد كُتِبَ فيه —

سلباً وإيجاباً ، وتفسيراً وتأويلاً - كثير من المؤلفات التي تمثل مختلف النزعات .

ولم يكن هذا الموضوع يشار في عهد الصحابة ، ويتناقش فيه ؛ وإنما أناره ، وناقشه من أتى بعدهم ، معتمدين على أقوالهم واتجاهاتهم . كان هذا المذهب الذي سنشرحه سائداً بين الصحابة ، لا يكاد يشذ عنه فرد . ولكن السكت لم تدون في عهد الصحابة ، ولم تكن قد نبقت الشبهات في رموس الأفراد . وانتهى عهد أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، ولم يتناقش القوم في مسألة الصفات . لقد شغلوا في عهد أبي بكر بحرب الردة ، وفي عهد عمر بالفتوح ، وشغلوا في أوائل عهد عثمان بالفتوح ، وفي أواخره بالفتنة ، وكان عهد علي من الاضطراب الاجتماعي بحيث لا يدع للجدل في صفات الله مجالا . ولكن مذهب المشبهة لم يلبث أن أطل برأسه ، ومذهب نفي الصفات بدأ مع « المعتزلة » ومع « جهنم » بن « صفوان » و« غيلان » .

كان تشبيهه من جانب ، ومن جانب آخر نفي للصفات فكان لا بد إذا من تحديد مذهب السلف ، وكان « لملك » و« الشافعي » و« أحمد » فيما بعد ، الفضل كل الفضل في إيضاح هذا المذهب ، وبيانته في دقة وتحديد . كانوا يؤمنون بما ورد به الكتاب والسنة ، ولا يتعرضون للتأويل .

وكانوا يحترزون عن التشبيه ، حتى لقد قالوا : من حرك يده عند قراءة قوله تعالى : « خلقت يدي » ، أو أشار بإصبعه عند روايته « قاب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » - وجب قطع يده ، وقلع إصبعيه ^(١) .

(١) انظر الشهرستاني ج ١ ص ١٧٢ ط بدران .

وعلى الرغم من أن موقف هؤلاء الأئمة العظام لا لبس فيه ، فقد استمر الجدل في مسألة الصفات من بعدهم ، ثم تحول الجدل إلى تحديد مذهب السلف نفسه ، ولا يزال هذا الجدل حول تحديد مذهب السلف مستمر إلى الآن : بين مدرسة الأشعرى ، ومدرسة ابن تيمية . وكل منهما يزعم انتسابه للسلف ، ومتابعته ، لمالك ، و « أحمد » ، بن « حنبل » — رضى الله عنهما —

وليس من شأننا الآن : تحديد ما إذا كان أحدهما ، أو كلاهما ، متابعاً أو غير متابع لمذهب السلف ، فسيأتى ذلك إن شاء الله تعالى ، عند التاريخ لمذهبهما ، ذلك لأننا الآن بصدد تحديد مذهب السلف فيما يتعلق بصفات البارئ تعالى . وسنعمد في هذا التحديد بوجه أخص على الشهرستاني في الملل والنحل ، وعلى الإمام الغزالي في الإحياء وفي إلجام العوام ، وعلى الإمام الرازى في أساس التقديس . وأظن أن خطورة الموضوع تعطينا كل العذر في الاستفاضة والاسترسال .

ونعود فنتساءل : ما موقف السلف من الصورة ، واليد ، والنزول ، والاستواء ، وما يجرى مجراها ، بما ورد في الكتاب والسنة مما يوهم التشبيه ؟

١ — إن أول موقف يقفه السلفي من هذه الأخبار : إنما هو التقديس لله سبحانه وتعالى والتزيه له عن الجسمية وتوابعها ، فإذا سمع كلمة الصورة مثلاً في قوله — صلى الله عليه وسلم — : « إن رأيت ربى فى أحسن صورة ، فينبغى أن يعلم أن الصورة اسم مشترك ، قد يطلق ويراد به الهيئة الحاصلة

في أجسام مؤلفة ، مرتبة ترتيباً مخصوصاً ، مثل ، الأنف ، والعين والفم ،
والخند ، التي هي أجسام ، وهي لحوم وعظام ^(١) .

وقد يطلق ويراد به ما ليس بجسم ، ولا هيئة في جسم ، كما تقول :
صورة هذه المسألة كذا ، وصورة الواقعة كذا ، ولقد صوّرت للمسألة
صورة في غاية الحسن ، فليتحقق كل مؤمن أن الصورة في حق الله لم تطلق
لإرادة المعنى الأول الذي هو جسم وهيئة . وإن خالق الأجسام ليتزهد
عن مشابقتها وصفاتها ، وإذا علم هذا يقيناً فهو مؤمن .

فإن خطر له أنه — عليه الصلاة والسلام — إن لم يرد هذا المعنى
الجسمي فأى معنى أراد ؟ فينبغي أن يعلم أن ذلك لم يؤمر به ، بل أمر بأن
لا يخوض فيه ، فإنه ليس على قدر طاقته ، لكن ينبغي أن يعتقد أنه أريد
به معنى يليق بجلال الله وعظمته مما ليس بجسم ولا عَرَض في جسم ^(٢) .

وعلى هذا النمط يكون موقفه في بقية ما ورد : كالفوقية ، والنزول ،
واليد ، والقدم : يجب أن ينفي في كل ذلك المعنى المادى ، وأن لا يحدد
معنى يخترعه هو .

٢ — ويجب عليه الإيمان والتصديق : وهو أن يعلم قطعاً أن هذه
الألفاظ أريد بها معنى يليق بجلال الله وعظمته ، وأن رسول الله
— صلى الله عليه وسلم — صادق في وصف الله تعالى به ، فليؤمن بذلك
وليوقن بأن ما قاله صدق ، وما أخبر عنه حق لا ريب فيه ، ويقول :

(١) إجماع العوام ص ٧ ط منير . (٢) ص ٨ .

آمنّا وصدقنا . وأن ما وصف الله تعالى به نفسه ، أو وصفه به رسوله ؛ فهو كما وصفه ، وحق بالمعنى الذى أراده ، وعلى الوجه الذى قاله ، وإن كان لا يقف على حقيقة (١) .

٣ — ويجب ، أمام هذه الأخبار ، أن يعترف بالعجز فإن التصديق واجب ، وهو عن إدراك المعنى عاجز ، فإن ادعى المعرفة فقد كذب .
وأوائل حقائق هذه المعانى ، بالإضافة إلى عوام الخلق كأواخرها بالإضافة إلى خواص الخلق .

٤ — وبالسؤال عن هذه الأمور ؛ يتعرض الإنسان لما لا يطيقه ، وقد ضرب «عمر» بالدرة من سألته عن المتشابهات ؛ ويرى الإمام «الغزالي» أنه يحرم على الوعاظ على رموس المنابر الجواب عن أسئلة المتشابهات ، وإنما يجب عليهم المبالغة فى التقديس ، ونفى التشبيه (٢) .

٥ — ولا يجوز تبديل لفظ من الألفاظ المتشابهة بلفظ آخر غير متشابه ، سواء كان بالعربية أو بالفارسية ؛ وذلك لأن الألفاظ المتشابهة قد يكون بعضها أكثر إيهاما للباطل من البعض (٣) .

فتفسيرها وترجمتها إذا ممنوعان . ولا يجوز النطق إلا باللفظ الوارد ؛ لأن من الألفاظ العربية ما لا يوجد لها فارسية تطابقها ؛ ومنها ما يوجد

(١) إجماع العوام ص ١٠ ط منير . (٢) إجماع العوام ص ١٣ ط منير .

(٣) أساس التقديس للرازي ص ٢٢٨ ط محي الدين السكردى .

لها فارسية ولكن ما جرت عادة الفرس باستعارتها للمعاني التي جرت عادة العرب باستعارتها منها ؛ ومنها ما يكون مشتركاً في العربية ولا يكون في العجمية كذلك . و « الأمثلة كثيرة : فمثلاً لفظ « الاستواء » ، فإنه ليس له في الفارسية — كما يقول الامام « الغزالي » — لفظ مطابق يؤدي بين الفرس من المعنى ما يؤديه لفظ « الاستواء » بين العرب بحيث لا يشتمل على مزيد إلهام : إذ فارسيته أن يقال : « راسب باستاد » ، وهذان لفظان ، الأول ينبيء عن انتصاب واستقامة فيما يتصور أن ينحني ويعوج ، والثاني ينبيء عن سكون وثبات فيما يتصور أن يتحرك ويضطرب ؛ وإشعاره بهذه المعاني ، وإشارته إليها في العجمية : أظهر من إشعار لفظ الاستواء ، وإشارته إليها في العربية ، فإذا تفاوتنا في الدلالة ، والإشعار : لم يكن هذا مثل الأول ، وإنما يجوز تبديل اللفظ بمثله ، المرادف له ، الذي لا يخالفه ، ولو بأدنى شيء ^(١) .

٦ — ويجب الاحتراز عن التصريف : فلا تقول في قوله تعالى : « استوى » ، أنه مستو ، فاسم الفاعل يدل على كون المشتق ممكناً ومستقراً ، أما لفظ الفعل فدلالته على هذا المعنى ضعيفة ^(٢) .

٧ — ولا يجوز الجمع بين هذه الألفاظ المتشابهة في مكان واحد ، لأننا إذا جمعنا الألفاظ المتشابهة ، وروينا هذا دفعة واحدة ، أوهمت

(١) إجماع العوام ص ١٣ — ١٤

(٢) أساس التقديس ص ٢٢٩ ط يحيى الدين الكردى .

كثرتها : أن المراد منها ظواهرها ، فكان ذلك الجمع سبباً لإيهام زيادة الباطل .

وكما لا يجوز الجمع بين متفرق لا يجوز التفريق بين مجتمع ، فإن ما يسبق الكلمة وما يلحقها له تأثير في تفهيم معناها . والله سبحانه وتعالى لم يذكر لفظ المنشابهات إلا وقرن بها قرينة من سابق أو لاحق تدل على زوال الوهم الباطل ^(١) ، فذكر العبودية عند وصف الله تعالى بالفوقية ، في قوله تعالى : « وهو القاهر فوق عباده » ، يدل على أن المراد من تلك الفوقية شيء آخر غير الفوقية المكانية .

٨ — ولا يقاس على هذه الألفاظ ، فإذا ورد لفظ اليد ، فلا يجوز إثبات الساعد ، أو العضد ، أو الكف ، مصيراً إلى أن هذا من لوازم اليد ، كل ذلك محال وكذب وزيادة قد يتجاسر عليها بعض الخلق ^(٢) .

٩ — وكما يجب على الإنسان إمساك اللسان عن السؤال ، وعن التصريف ، فإنه يجب عليه كف الباطن عن التفكير في هذه الأمور ؛ وهذا ثقیل على النفس ، ولكن من الممكن أن يشغل الإنسان نفسه عنه بمختلف أنواع العبادة ، أو بهواية من الهوايات العلية ، أو العملية . ويرى الإمام الغزالي ، أن الاشتغال بلعب أو هوا ، خير له من الخوض في هذا البحر البعيد غوره ، العظيم خطره « بل لو اشتغل العاوي بالمعاصي البدنية ، ربما كان أسلم »

(١) أساس التقديس ص ٢٢٩ ط السكردي .

(٢) الجوامع ص ٢٤

له من أن يخوض في البحث عن معرفة الله تعالى ، فإن ذلك غايته الفسق ، وهذا عاقبته الشرك ؛ وإن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، (١) .

وأخيراً فإن حاصل هذا المذهب — كما يقول الرازي — هو :
« أن هذه المتشابهات يجب القطع فيها بأن مراد الله تعالى منها شيء غير
ظواهرها . ثم يجب تفويض معناها إلى الله تعالى . ولا يجوز الخوض
في تفسيرها ، (٢) .

أسباب التوقف في التفسير والتأويل :

والتوقف في تفسير هذه الآيات ، وتأويلها إنما كان لأمرين :
أحدهما : المنع الوارد في التنزيل ، فقد قال الله تعالى في شأن القرآن :
« منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم
زيغ ، فيتبعون ما تشابه منه ، ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله
إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون : آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر
إلا أولو الألباب (٣) » ؛ ولا مناص لمن يريد أن يحترز عن الزيغ
من أن يمتنع عن التأويل ، والتفسير ، والتصريف ، وغير ذلك :
بما ذكر سابقاً .

والأمر الثاني : أن التأويل أمر مظنون بالاتفاق ، والقول في صفات

(٢) أساس التقديس ص ٢٢٣

(١) أجام العوام ص ٢٦

(٣) سورة آل عمران : ٧

البارى بالظن غير جائز ، فربما أولنا الآية على غير مراد البارى تعالى ، فوقعنا فى الزيف ؛ بل نقول كما قال : « الراسخون فى العلم » : « كل من عند ربنا ^(١) » .

والحق مذهب السلف :

والحق مذهب السلف ؛ ويتبين ذلك من تسليم أربعة أصول هى مسلمة عند كل عاقل :

(١) إن أعرف الخلق بصلاح أحوال العباد بالإضافة إلى حسن المعاد هو النبي - صلى الله عليه وسلم - فإن ما ينتفع به فى الآخرة أو يُضرُّ لا سبيل إلى معرفته بالتجربة : كالمعرفة الطبية ، إذ لا مجال للعلوم التجريبية إلا بما يشاهد على التكرار . ومن الذى رجع من ذلك العالم فأدرك بالمشاهدة ما نفع وضر وأخبر عنه ؟

ولا يدرك بقياس العقل ، فإن العقول قاصرة عن ذلك ، والعقلاء بأجمعهم معترفون بأن العقل لا يهتدى إلى ما بعد الموت ، وأقروا بأن ذلك لا يدرك إلا بنور النبوة .

(ب) ورسول الله لم يبعث إلا لتبليغ الخلق ما أوحى إليه من صلاح العباد فى معادهم ومعاشهم ، ولذلك كان رحمة للعالمين ، وقد بذل فى سبيل ذلك جهده ، ولم يترك شيئاً مما يقرب إلى الله إلا دلَّ عليه وأمر به ، ولا شيئاً مما يبعد عن الله إلا حذر منه ونهى عنه ، وذلك فى العلم والعمل جميعاً

(١) الشهرستانى ص ١٧٣ ط بدران .

(ج) وأعرف الناس بمعاني كلامه — صلى الله عليه وسلم — وأحرامهم بالوقوف على كنهه ودرك أسراره، إنما هم الذين شاهدوا الوحي والتنزيل، وعاصروه وصاحبوه، وتلقوه بالقبول للعمل به وللنقل إلى من بعدهم، وللتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بسماعه وفهمه، وحفظه ونشره.

(د) ولم يؤثر عنهم — إلى آخر أعمارهم — أنهم دعوا الخلق إلى البحث، والتفتيش والتفسير والتأويل في المشابه، بل على العكس من ذلك: زجروا من خاض فيه وسأل عنه، وتكلم به (١).

والحق مذهب السلف: ذلك أن نقيضه بدعة مذمومة وضلالة، وقد اتفقت الأمة قاطبة على ذم البدعة التي ترفع سنة، وهذه بدعة رفعت سنة، إذ كانت سنة الصحابة: المنع من الخوض في ذلك، وزجر من سأل عنه كما نقل ذلك عن عمر، وعلي — رضى الله عنهما —

ومما يجب التنبيه له: أن هذه الكلمات، ما جمعها — رسول الله صلى الله عليه وسلم — دفعة واحدة، وإنما جمعها المشبهة، وجمعها من التأثير في الإيهام، والتليس على الأفهام، ما ليس لأحاديها المتفرقة؛ وهي — إذا اقتصر منها على ما في القرآن — كلمات يسيرة معدودة.

وما ذكر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كلمة منها إلا مع قرائن، وإشارات، يزول معها إيهام التشبيه؛ ومن أعظم القرائن — في زوال الإيهام — المعرفة السابقة بتقديس الله عن قبول هذه الظواهر.

(١) إجماع العوام ص ٣٤ ط منير.

وقد سمي رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الكعبة : « بيت الله سبحانه وتعالى » ، وليس المراد أنها مسكنه ومأواه .

وقالت العرب : « بغداد » في يد « الخليفة » ، وليس المراد أن « بغداد » بين أصابعه ، وإنما المراد معنى آخر غير المعنى الظاهر .

وجميع الألفاظ الموهمة في الاختبار ؛ يكفي في دفع إيهامها قرينة واحدة ، وهي معرفة الله ، وأنه ليس بجسم ، وليس من جنس الأجسام ، وهذا لما افتتح رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بيانه في أول بعثته ، قبل النطق بهذه الألفاظ (١) ،

ومن تلك القرائن : معرفة المسلمين أنهم نهوا عن عبادة الأصنام ، وأن من عبد جسماً فقد عبد صنماً ، سواء أكان الجسم صغيراً أو كبيراً ، قبيحاً أو جميلاً ، سافلاً أو عالياً ، على الأرض أو على العرش .

ونفي الجسمية ، ونفي لوازمها معلوم للمسلمين ، على القطع والضرورة بإعلام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المبالغة في التنزيه بالقرآن العظيم ، وبقوله تعالى : « ليس كمثله شيء » ، وسورة « الإخلاص » ، وقوله تعالى : « ولا تجعلوا لله أنداداً » ، وبألفاظ كثيرة ، لا حصر لها في الكتاب والسنة الصحيحة ، مع قرائن قاطعة ، لصرفها عن إرادة الظاهر منها .

ويأتى الإمام الغزالي ، في كتابه إلجام العوام ، بأسئلة وأجوبة ، تعتبر تطبيقاً على ما سبق بيانه من مذهب السلف .

(١) إلجام العوام ، ص ٤٠ — ٤٢ ، ط منير .

فإذا سئل الإنسان عن « الاستواء » ، و « الفوق » ، و « اليد » ،
« والإصبع » ، مثلاً ؛ فالجواب أن يقال :

الحق فيه : ما قاله الرسول — صلى الله عليه وسلم — وقاله الله تعالى ؛
وقد صدق حيث قال : « الرحمن على العرش استوى » . فيعلم قطعاً أنه ما أراد
الجلوس والاستقرار ، الذي هو صفة الأجسام ، ولا ندرى ما الذي
أراده ؟ ولم نكلف معرفته .

وصدق حيث قال : « وهو القاهر فوق عباده » ، وفوقية المكان
محالة : فإنه كان قبل المكان ، فهو الآن كما كان ، وما أراد فلسفياً نعرفه ،
وليس علينا ، ولا عليك أيها السائل معرفته .

لله مذهب السلف إذا : يقف عند ما ورد في القرآن والسنة : من أدلة
على وجود الله ، وصفاته ، دون زيادة أو نقص ، ويرى أن ذلك كاف
في تثبيت الإيمان ، وفي إقناع الملحد ، وفي رد اليهود ، والنصارى
إلى الجادة ؛ ويرى ، أن قواعد الإيمان ، وأصوله ، قد بينها القرآن بياناً
تاماً : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم
الإسلام ديناً » .

ويقف من الله سبحانه وتعالى موقف الاستسلام ، فيؤمن بالقدر ،
ويتخذ الأسباب ، ويعد ما استطاع : من قوة ومن رباط الخيل .

ويحترز عن الزيف ، فلا يتبع المتشابه ، ولا يسير وراء

الجدل المردى .

(٦)

رأى بعض الغربيين في أبحاث ما وراء الطبيعة :

وقد سبق أن ذكرنا في هذا الفصل موقف الأئمة : مالك ، والشافعي وابن حنبل ، من الجدل في الله ، وأنه لا يفلح صاحب كلام أبداً كما قال الإمام أحمد .

وسبق أن بينا في استفاضة — في المقدمة التي كتبناها لكتاب المنقذ من الضلال — أن العقل قاصر كل القصور فيما يتعلق بمحيط ما وراء الطبيعة وأن خير طريق للسلامة والنجاة ، إنما هو اتباع النص .

والآن نريد أن نثبت هنا كلمة عن آراء بعض الغربيين ، في علم ما وراء الطبيعة المبني على العقل ، وعلى العقل وحده .

قال الأستاذ ا. س. رابورت في كتاب « مبادئ الفلسفة » ،^(١)

« وهل علم ما بعد الطبيعة ، سينال غرضه يوماً ما ؟ أو سيظل صاغراً متسوّلاً أمام ساحة تلك القوة الخفية الكبرى لا يستطيع أن يطأ حماها ، عاجزاً إلا عن تخيل ما فيها ، محارباً للصعاب التي تعترضه في سبيل كشف النقاب عن ألغاز هذا العالم الكثيرة ؟ وهل يستطيع العقل البشري أن يحل هذه المسائل حلاً مرضياً ؟ أو سيظهر له أن البحث فيها بحث في مستحيل ؟ كل هذه الأسئلة كانت ولا تزال عبئاً ثقيلاً على العلم والفلسفة ، ولقد قيل : « إن علم ما بعد الطبيعة ، والشعر الرفيع السامي ، يلتقيان فيمتزجان

وإن عالم ما بعد الطبيعة : عالم دَرَج في غير عشه ، يبحثه عن شيء فوق الحقائق ، فإذا هو شاعر .

وقال فولتير : « إن علم ما بعد الطبيعة : بستان يرتاض فيه العقل ، وإنه لألذ من علم الهندسة ، فلا نعانى فيه ما نعانى فيها من الحساب والقياس ، بل فيه نحلّم حُلماً لذيذاً . »

وقال « بكنسل » في كتابه « المدنية في انجلترا » : « إن كل باحث في علم ما بعد الطبيعة إنما يبحث أعمال عقله ، ولم يكن من وراء ذلك البحث استكشاف في أى فرع من فروع العلم . »

وقال « بختنر » مؤلف كتاب « القوة والمادة » ، في أحد مؤلفاته الأخيرة المسمى « بجانب قرن يُختصر » : « بينما نرى علم النفس ، والمنطق ، والجمال ، والأخلاق ، وفلسفة القانون ، وتاريخ الفلسفة ، تستحق البقاء ، وينبغي أن يدرسها العقل البشرى ؛ إذ نرى ما بعد الطبيعة علماً مستحيلاً ، وراء الطبيعة ، وراء حواسنا ، فيجب أن يترك بمضيعة ، ويعد من سَقَط المتاع ، اهـ . »

أظن أنه أصبح من البديهي أن مذهب السلف هو حقاً طريق السلام .

الفصل الخامس^(١)

التفكير في عهد الصحابة

(١)

التفكير في ذات الله :

كان الوحي ينزل على الرسول — صلى الله عليه وسلم — تبعاً ، مبيناً أمر الدين ، ولكنه سكّت عن بعض المسائل فلم يبينها ؛ وهذه المسائل التي سكّت عنها تنقسم إلى قسمين :

١ — ما يتصل منها بذات الله وكنهه ، وحقيقة صفاته ، ومدى ارتباطها بذاته ، وأسراره في القدر ، وغير ذلك من المسائل الشائكة المشتبّهة ، التي لا مجال للعقل الإنساني فيها : غريباً كان ، أو شريعياً ، وقديماً كان ، أو حديثاً ؛ وقد كان الاتجاه العام في القرآن ، وفي تصرفات الرسول : النفور من البحث فيها . يقول « الشهرستاني » :

« واعتبر حال طائفة أخرى ، حيث جادلوا في ذات الله ؛ تفكراً في جلاله ، وتصرفاً في أفعاله ، حتى منعهم وخوفهم بقوله تعالى : « وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ » ، وهم يجادلون في الله ، وهو شديد المحال . »

(١) من مصادر هذا الفصل : الملل والنحل ، للشهرستاني ، الفرق بين الفرق لـ « البغدادي » ، التبصير في الدين لـ « الإسفرايني » ، مقالات الإسلاميين لـ « الأشعري » ، فجر الإسلام لـ « الدكتور أحمد أمين » .

أما الأحاديث فكثيرة ، ذكرنا بعضها سابقاً ، ونذكر منها الآن ما يلي :
قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه ، إلا أوتوا الجدل ؛ ثم قرأ : « ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون » ، رواه الترمذى ، وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن صحيح .
وقال : « من ترك المراء وهو مبطل بنى الله له بيتاً فى رُبض الجنة ، ومن ترك المراء وهو محق ، بنى الله له بيتاً فى أعلى الجنة » ، رواه ابن ماجه ، وحسنه الترمذى .

وقال — صلى الله عليه وسلم — : « إذا ذكر القدر فأمسكوا » ، رواه الطبرانى ، من حديث ابن مسعود بإسناد حسن .

وكان الخلفاء الراشدون — رضوان الله عليهم — ينفرون عما كان ينفرون منه الرسول فقد حدث فى عهد « عمر » — رضى الله عنه — أن أخذ رجل يسمى « صبيغ بن عسل » ، يسأل عن المتشابه ، فطلبه عمر ، وأخذ يضربه بعراجين النخل ، حتى كرمى رأسه ، فقال : حسبك يا أمير المؤمنين ، قد ذهب الذى كنت أجده فى رأسى . يريد بذلك أنه قد تاب ، وأن نزغاته قد ذهبت بها عراجين النخل ، ولكن الفاروق لم يكف بذلك ، بل نفاه إلى البصرة ، حتى استيقن من صلاح حاله .

(٢)

النفكير فى مسائل الفقه :

٢ — ولم يذكر القرآن كل المسائل الجزئية التى تتصل بالفروع ، فإنها

لا يحيط بها الحصر ؛ وقد بين القرآن الأصول العامة للتشريع ، وبين كثيراً من الجزئيات ، وسكت عن الباقي تاركاً أمرها إلى اجتهاد الفقهاء . وعلماء الإسلام يرون أن الاختلاف في هذه المسائل على قولين : أحدهما تصويب المجتهدين كلهم فيما ذهبوا إليه ؛ وكل يجتهد مصيب . والثاني : يرى في كل فرع تصويب واحد من المختلفين ، وتخطئة الباقيين ، من غير تضليل منه للمخطئ (١) .

وقد كان الناس في عهد الرسول — صلوات الله عليه — يسألونه عما يحدث لهم ويقع من المسائل الفرعية التي سكت عنها الوحي ، وهو يجب دون نفور منه ؛ ثم كانوا يسألون كبار الصحابة ، وكانوا يجيبونهم بما يعلمون أنه ينسجم مع الأهداف العامة للدين ، ومع الأصول المرعية فيه .

وقد انهل على « الصحابة » — باتساع الفتوح — الكثير من الأسئلة الخاصة بالفروع ، وكان كثير من « الصحابة » يجيبون برأيهم ، ويستعملون القياس ، من ذلك ما روى مثلاً : ما رفع إلى « عمر » من حادثة رجل قتلته امرأة أبيه وخليلها ، فتردد « عمر » : هل يقتل الكثير بالواحد ؟ فقال له « علي » : أرأيت : لو كان نفرأ اشتركوا في سرقة « جزور » ، فأخذ هذا عضواً ، وهذا عضواً ، أكنت قاطعهم ؟ قال : نعم ، قال : فكذلك ؛ فعمل « عمر » برأيه .

وقد كان يحدث أحياناً أن يبدي السائل ملاحظة ، فيعدل الصحابي

عن رأيه لوجه الملاحظة ؛ فقد رفعت إلى « عمر » ، « المسألة المشتركة » ،
وهي التي توفيت فيها امرأة ، عن زوج ، وأم ، وإخوة لأم ، وإخوة
أشقاء : كان « عمر » يعطى للزوج النصف ، وللأم السدس ، وللإخوة لأم
الثلث ، فلا يبقى شيء للإخوة الأشقاء . فقال الإخوة الأشقاء لـ « عمر » :
« هب أن أبانا كان حجراً في اليم ، ألسنا من أم واحدة ؟ فعدل عن رأيه ،
وأشرك بينهم . »

وأهم من ذلك بكثير : ما كان يراه بعض « الصحابة » من النظر ،
في دقة ، إلى الحكمة الشرعية ، والمصلحة العامة والظروف ، والملاسات ،
والأسباب ، والدواعي ؛ والأمثلة على ذلك كثيرة ، قد ذكرها الفقهاء ،
في غير ما موضع في كتبهم ، ومن أمثلتها ما يلي :

قال الله - تعالى - : « إنما الصدقات للفقراء ، والمساكين ، والعاملين
عليها ، والمؤلفة قلوبهم ... الآية » ، فجعل « المؤلفة » قلوبهم مصرفاً
من مصارف الزكاة ، وقد ثبت أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان
يعطى بعض الناس ، يتألف قلوبهم للإسلام ، كما أعطى « أبا سفيان » ،
و « الأقرع » ، بن « حابس » ، و « عباس » ، بن « مرداس » ، و « صفوان » ،
ابن « أمية » ، و « عيينة » ، بن « حصن » ، كل واحد منهم مائة من الإبل ،
حتى قال « صفوان » : « لقد أعطاني ما أعطاني ، وهو أبغض الناس إليّ » ،
فما زال يعطيني حتى كان أحب الناس إليّ ؛ ثم في زمن « أبي بكر » ، جاء
« عيينة » ، و « الأقرع » ، يطلبان أرضاً فكتب لهما بها ، فجاء « عمر » ، فزق

الكتاب وقال : إن الله أعز الإسلام ، وأغنى عنكم ، فإن ثبتم عليه ، وإلا فبيننا وبينكم السيف ^(١) .

ويقول الدكتور د أحمد أمين ، ، بعد ذكر الحادثة السابقة : « فترى من هذا أن « عمر ، علل الدفع إلى المؤلفة قلوبهم بعله : هي المصلحة ، فلما ارتفعت هذه المصلحة بعزة الإسلام ، وعدم حاجته إلى من تتألف قلوبهم ، لم يستمر في إجراء الحكم عليه ، اهـ .

وقد حفظت لنا الأيام وثيقة قيمة ، تبين توجيه « عمر ، للقضاة الذين يرسلهم إلى الأقاليم النائية ، وفيها ينصح « عمر ، « أبا مرسى الأشعري ، بما يجب أن يكون عليه « كقاض ، ، ويبين له فيها بعض القواعد الفقهية :

بسم الله الرحمن الرحيم

من « عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، إلى « عبدالله بن قيس ، : سلام عليك ، أما بعد ، فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة . فافهم إذا أدلى إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له .

آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجاسك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا يئأس ضعيف من عدلك .

البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر .

والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً .

لا يمنعك قضاء قضيته اليوم ، فراجعت فيه عقلك ، وهُديت فيه

(١) فجر الاسلام للدكتور أحمد أمين .

لرشدك ، أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التماذى فى الباطل .

الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك بما ليس فى كتاب ولا سنة . ثم اعرف الأشباه والأمثال ؛ فقس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أقربها إلى الله ، وأشبهها بالحق .

واجمل لمن ادعى حقاً غائباً ، أو بيته أمدأ ينتهى إليه ، فإذا أحضر بيته أخذت له بحقه ، وإلا استحللت عليه القضية ؛ فإنه أنفى للشك ، وأجلى للعمى .

المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حد ، أو مجرباً عليه عليه شهادة زور ، أو ظليماً فى ولاء أو نسب ؛ فإن الله تولى منكم السرائر ، ودرأ بالبينات والأيمان ،

وإياك والقلق والضجر ، والتأذى بالخصوم ، والتنكر عند الخصومات ، فإن الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الأجر ، ويحسن به الذخر ، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شأنه الله ؛ فما ظنك بثواب غير الله عز وجل فى عاجل رزقه وخزائن رحمته ، والسلام .

(٣)

من مظاهر المذهب بين الصحابة :

ومع ذلك فإنه من الخطأ البين : أن يظن الإنسان أنه لم يحدث اختلاف بين الصحابة ، فقد اختلفوا فى كثير من مسائل الفقه ، . ولكن

مؤرخي الأديان — بعد أن يؤكدوا أن الاتفاق كان تاماً في مسائل
الاصول : أعني العقيدة — يذكرون اختلافات معينة : فالأشعري
المتوفى سنة ٢٣٠ هـ يذكر في كتابه « مقالات الإسلاميين » : الاختلاف
في الإمامة ، وفي قتل عثمان ، وفي أمر علي (١) ،

و « البغدادى » ، المتوفى سنة ٢٩٩ هـ يذكر في كتابه « الفرق بين الفرق » :
اختلاف الصحابة في موت النبي — صلى الله عليه وسلم — ودفنه ، وفي الإمامة ،
و « فدك » ، و قتال مائعي وجوب الزكاة ، ويذكر اختلافهم في أمر عثمان ،
و « علي » (٢) .

ويذكر « الاسفراينى » المتوفى سنة ٤٧١ هـ الاختلاف في وفاة الرسول ،
وموضع دفنه ، وفي الإمامة ، وفي أمر عثمان ، وفي أمر علي ، ويذكر
اختلاف « الخوارج » في عهد علي ، وظهور فرقة السبئية (٣) .

ونحن نذكر الآن هذه الاختلافات التي حدثت نقلاً عن « الشهرستانى »
المتوفى سنة ٥٤٨ هـ ، فإنه أوفى المراجع ، التي بين أيدينا الآن في ذكر
هذه الاختلافات .

قال في كتابه « الملل والنحل » :

وأما الاختلافات الواقعة ، في حال مرضه — عليه السلام — وبعد
وفاته بين الصحابة — رضى الله عنهم — فهي اختلافات اجتهادية ،

(١) مقالات الإسلاميين ص ٣٩ — ٤١ ط النهضة المصرية .

(٢) الفرق بين الفرق ص ١٢

(٣) التبصير في الدين للإسفرائينى ص ١٢ — ١٣

— كما قيل — كان غرضهم منها : إقامة مراسم الشرع ، وإدامة مناهج الدين .

فأول تنازع وقع في مرضه — عليه السلام — فيما رواه الإمام « أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخارى ، بإسناده عن « عبدالله بن عباس ، — رضى الله عنه — قال : « لما اشتد بالنبي — صلى الله عليه وسلم — مرضه الذى مات فيه ، قال : « إيتوني بدواة وقرطاس ، أكتب لكم كتاباً ، لا تضلوا بعدى . فقال : « عمر ، — رضى الله عنه — « إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد غلبه الوجع ، حسبنا كتاب الله ، وكثر اللغط ؛ فقال النبي — صلى الله عليه وسلم — : قوموا عني لا ينبغي عندي «التنازع» قال «ابن عباس» : «الرزية كل الرزية : ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — !

الخلاف الثانى فى مرضه : أنه قال : « جهزوا جيش «أسامة» لعن الله من تخلف عنه . فقال قوم : يجب علينا امتثال أمره ؛ وأسامة قد برز من المدينة وقال قوم : قد اشتد مرض النبي — عليه السلام — فلا تسع قلوبنا مفارقه ، والحالة هذه ؛ فنصبر حتى نبصر أى شىء يكون من أمره ؟ وإنما أوردت هذين التنازعين ، لأن المخالفين ربما عدوا ذلك من الخلافات المؤثرة فى أمر الدين ، وليس كذلك ، وإنما كان الغرض كله إقامة مراسم الشرع فى حال تزلزل القلوب ، وتسكين نائرة الفتنة المؤثرة عند تقلب الأمور .

الخلاف الثالث : فى موته — عليه السلام — قال « عمر بن الخطاب » من قال : إن « محمداً » قد مات قتلته بسيفى هذا ؛ وإنما رفع إلى السماء ، كما رفع « عيسى » — عليه السلام — وقال أبو بكر بن أبى قحافة — رضى الله عنه — « من كان يعبد « محمداً » فإن « محمداً » قد مات ؛ ومن كان يعبد « إله محمد » فإن « إله محمد » — صلى الله عليه وسلم — لم يموت ولا يموت . . وقرأ قول الله سبحانه وتعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزي الله الشاكرين » . فرجع القوم إلى قوله ؛ وقال « عمر » — رضى الله عنه — « كأنى ما سمعت هذه الآية حتى قرأها أبو بكر » .

الخلاف الرابع : فى موضع دفنه عليه السلام .

أراد أهل مكة من المهاجرين رده إلى مكة ؛ لأنها مسقط رأسه ، ومأنس نفسه ، وموطئ قدمه ، وموطن أهله ، وموقع رحله . وأراد أهل المدينة من الأنصار ؛ دفنه بالمدينة ؛ لأنها دار هجرته ، ومدار نصرته .

وأرادت جماعة نقله إلى بيت المقدس ؛ لأنه موضع دفن الأنبياء — عليهم السلام — ومنه مراجه إلى السماء .

ثم اتفقوا على دفنه بالمدينة ؛ لما روى عنه — عليه السلام — « الأنبياء يدفنون حيث يموتون » .

الخلاف : الخامس : في الإمامة .

وأعظم خلاف بين الأمة ، خلاف الإمامة ؛ إذ ما سئل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سئل على الإمامة في كل زمان .

وقد سهل الله تعالى ذلك ، في الصدر الأول ؛ فاختلف المهاجرون والأنصار فيها ؛ فقالت الأنصار : « منا أمير ومنكم أمير » ، وانفقوا على رئيسهم « سعد بن عبادَةَ الأنصارى » ، فاستدركه « أبو بكر » ، و « عمر » ، رضى الله عنهما — في الحال ، بأن حضرا سقيفة بنى ساعدة ، وقال « عمر » : « كنت أزور في نفسى كلاماً في الطريق ، فلما وصلنا إلى السقيفة أردت أن أتكلم ، فقال « أبو بكر » : مه يا « عمر » ، الحمد لله وأثنى عليه ، وذكر ما كنت أقدره في نفسى ؛ كأنه يخبر عن غيب ، فقبل أن يشتغل الأنصار بالكلام مددت يدي إليه فبايعته وبايعه الناس ، وسكنت الفتنة ، ألا إن بيعة أب بكر كانت فلتة وفي الله المسلمين شرها ، فن عاد إلى مثلها فاقتلوه ، فأبى رجل بايع رجلا من غير مشورة من المسلمين فإنهما تغرّة يجب أن يقتلا . وإنما سكنت الأنصار عن دعواهم ، لرواية (١)

(١) ويذكر « الاسفرابني » في كتابه « التبصير في الدين » : استدلالا طريفاً لـ « أبي بكر » — رضى الله عنه — لم نجده عند غيره من المؤرخين للأديان ، فهو يذكر : أن « الصديق » خطب ، ثم تلا قوله تعالى : « للفقراء المهاجرين ، الذين أخرجوا من ديارهم ، وأموالهم ، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون » ، =

« أبى بكر ، عن النبي — عليه السلام — : « الأئمة من قريش ^(١) ، وهذه البيعة هي التي جرت في السقيفة . ثم لما عاد إلى المسجد انثال الناس عليه وبايعوه عن رغبة سوى جماعة من بنى هاشم ، و « أبى سفيان » من بنى أمية . وأمير المؤمنين « علي بن أبى طالب » — رضى الله عنه — كان مشغولا بما أمره النبي — صلى الله عليه وسلم — من تجهيزه ، ودفنه ، وملازمة قبره ، من غير منازعة ، ولا مدافعة .

الخلاف السادس : في أمر « فدك » والتوارث عن النبي — عليه السلام — ودعوى فاطمة — عليها السلام — وراثته تارة ، وتمليكها أخرى ؛ حتى دُفِعَتْ عن ذلك بالرواية المشهورة عن النبي — عليه السلام — « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة » .

الخلاف السابع : في قتال مانعي الركاة .

فقال قوم : لا نقاتلهم قتال الكفيرة . وقال قوم : بل نقاتلهم ؛ حتى

== قال فسمانا « الصادقين » . ثم أمر الله المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وكونوا مع الصادقين » ،

ثم روى لهم الحديث : « الأئمة من قريش » . ص ١٢

(١) يقول « الشيخ زاهد الكوثري » ، في تعليقه على « التبصير » :

« مع شهرة هذه الحكاية — بين المتكلمين — لم يثبت احتجاج « أبى بكر » بهذا الحديث يوم البيعة ، وإن كان الحديث وارداً بسند جيد عند « الطبراني » وغيره ، كما يظهر من « تلقيح الفهوم في تنقيح صيغ العموم » ،

« للحافظ العلائي » . التبصير ص ١٢

قال «أبو بكر» — رضى الله عنه — «لو منعوني عقلاً بما أعطوا رسول الله صلى الله عليه وسلم — لقاتلتهم عليه» ، ومضى بنفسه إلى قتالهم ، ووافقه جماعة من الصحابة بأسرهم .

وقد أدى اجتهاد «عمر» — رضى الله عنه — فى أيام خلافته إلى ردّ السبايا والأموال إليهم ، وإطلاق المحبوسين منهم ، والإفراج عن أسرائهم .
الخلاف الثامن : فى تنصيب «أبي بكر» على «عمر» بالخلافة وقت الوفاة ؛ فن الناس من قال : قد وليت علينا فظاً غليظاً . وارتفع الخلاف ، بقول «أبو بكر» : «لو سألنى ربى يوم القيامة ، لقلت : وليت عليهم خير أهلهم» .

وقد وقع فى زمانه اختلافات كثيرة : فى مسائل ميراث الجد والإخوة والكلالة ، وفى عقل الأصابع ، وديات الأسنان ، وحدود بعض الجرائم التى لم يرد فيها نص .

وإنما أهم أمورهم الاشتغال بقتال الروم ، وغزو العجم . وفتح الله تعالى الفتوح على المسلمين ، وكثرت السبايا والغنائم ، وكانوا كلهم يصدرون عن رأى «عمر» — رضى الله عنه — وانتشرت الدعوة ، وظهرت الكلمة ، ودانت العرب ، ولانت العجم .

الخلاف التاسع : فى أمر الشورى ، واختلاف الآراء فيها .
وانفقوا كلهم على بيعة «عثمان» — رضى الله عنه — وانتظم الأمر ، واستمرت الدعوة فى زمانه ، وكثرت الفتوح ، وامتلا بيت المال ،

وعاشر الخلق على أحسن خلق ، وعاملهم بأبسط يد ؛ غير أن أقاربه — من بنى أمية — قد ركبوا نهايرَ فركبته ، وجاروا فجير عليه ، ووقعت في زمانه اختلافات كثيرة . وأخذوا عليه أحياناً كلها محالة على بنى أمية . منها : رده « الحكم بن أمية » إلى المدينة ، بعد أن طرده رسول الله ، — صلى الله عليه وسلم — وكان يسمى طريد رسول الله ، وبعد أن تشفع إلى « أبى بكر » ، و « عمر » ، — رضى الله عنهما — أيام خلافتهما فما أجابا إلى ذلك ، ونفاه « عمر » من مقامه باليمن أربعين فرسخاً .

ومنها : نفيه : « أبازر » إلى الربذة ؛ وتزويجه « مروان بن الحكم » بنته ؛ وتسليمه خمس غنائم إفريقية له ، وقد بلغت مائتى ألف دينار .

ومنها : إيوؤه « عبد الله بن سعد بن أبى سرح » ، وكان رضيعه ، بعد أن أهدر النبي — عليه السلام — دمه ؛ وتوليته إياه مصر بأعمالها . وتوليته « عبد الله بن عامر » البصرة ، حتى أحدث فيها ما أحدث ، إلى غير ذلك مما نعموا عليه .

وكان أمراء جنوده : « معاوية بن أبى سفيان » عامل الشام ؛ و « سعد بن أبى وقاص » عامل الكوفة ، وبعده « الوليد بن عقبة » و « سعيد بن العاص » ؛ و « عبد الله بن عامر » عامل البصرة ؛ و « عبد الله ابن سعد بن أبى سرح » عامل مصر .

وكلهم خذلوه ورفضوه ؛ حتى أتى قدره عليه ، وقتل مظلوماً ، في داره وئارت الفتنة من الظلم الذى جرى عليه ، ولم تسكن بعد .

الخلاف العاشر : فى زمان « أمير المؤمنين على » ، — رضى الله عنه — بعد الاتفاق عليه ، وعقد البيعة له .

فأوله : خروج « طلحة » ، و « الزبير » ، إلى مكة ، ثم حمل « عائشة » ، إلى البصرة ، ثم نصب القتال معه ؛ ويعرف ذلك بحرب « الجمل » . والحق أنهما رجعا وتابا ؛ إذ ذكرهما أمراً فتذكراه ؛ فأما « الزبير » ، فقتله « ابن جرموز » ، — بقوس — وقت الانصراف ؛ وهو في النار ؛ لقول النبي — صلى الله عليه وسلم — : « بشر قاتل ابن صفية بالنار » ، وأما « طلحة » ، فرماه « مروان بن الحكم » ، بسهم وقت الإعراض نحر ميتاً ، وأما « عائشة » ، رضى الله عنها — فكانت محمولة على ما فعلت ، ثم تاب بعد ذلك ورجعت . والخلاف بينه وبين « معاوية » ، وحرب « صفين » ، ومخالفة « الخوارج » ، وحمله على « التحكيم » ، ومغادرة « عمرو بن العاص » ، « أبا موسى الأشعري » ، وبقاء الخلاف إلى وقت وفاته مشهور . وكذلك الخلاف بينه وبين الشراة المارقين « بالنهروان » ، عقداً وقولا ، ونصب القتال معه فعلا ظاهراً — معروف .

وبالجملة : كان « علي » ، — رضى الله عنه — مع الحق ، والحق معه . وظهر في زمانه « الخوارج » ، عليه ؛ مثل : « الأشعث بن قيس » ، و « مسعود بن فدكي » ، التميمي ، و « زيد بن حصين الطائي » ، وغيرهم . وكذلك : ظهر في زمانه « الغلاة » ، في حقه ؛ مثل : « عبد الله بن سبأ » ، وجماعة معه .

ومن الفريقين ابتدأت البدعة والضلالة ؛ وصدق فيه قول النبي — صلى الله عليه وسلم — « يهلك فيك اثنان : محب غال ، ومبغض قال » . وانقسمت الاختلافات بعده ، إلى قسمين :

أحدهما : الاختلاف في الإمامة ؛ والثاني : الاختلاف في الأصول اهـ

الفصل السادس^(١) الاختلاف في الإمامة

(١)

أصل الشيعة :

يختلف الناس في أصل « الشيعة » ، فيعزوها بعضهم إلى أثر الفرس الذين كانوا يقصدسون « المليك » ، فلما زال مُلكُهم ، ودخلوا في الإسلام ، ظهر أثر ذلك في موقفهم من « آل البيت » ، وتقديسهم للأئمة . ويرى آخرون ، أن « الشيعة » تدين في نشأتها لـ « عبد الله بن سبأ » ، الذي كان يهودياً واعتنق الإسلام للنَّيل منه والسَّكيد له ؛ فأظهر هذا المذهب ليفرق بين المسلمين ، ويقضي على وُحدتهم وعزتهم .

رأى « ولهروسه » و « دوزي »

يقول الدكتور أحمد أمين :

وقد ذهب الأستاذ « ولهروسن » ، إلى أن العقيدة « الشيعية » نبتت من « اليهودية » ، أكثر مما نبتت من « الفارسية » ، مستدلاً بأن مؤسسها « عبد الله بن سبأ » ، وهو يهودي . ويميل الأستاذ « دوزي » ، إلى أن أساسها « فارسي » ، « فالعرب » تدين بالحرية ، « والفرس » يدينون

(١) من مصادر هذا الفصل : مقالات الإسلاميين « للأشعري » .

الفرق بين الفرق « للبغدادى » ، التبصير في الدين « للأسفرايين » ، الملل والنحل « للشهرستاني » ، مقدمة « ابن خلدون » ، عثمان « الدكتور طه حسين » ، على وبنوه « الدكتور طه حسين » ، فجر الإسلام « الدكتور أحمد أمين » ، ضحى الإسلام « للدكتور أحمد أمين » ، أصل الشيعة وأصولها « للشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء » ، أصول الإسماعيلية « للدكتور برنارد لويس » .

«بالمَلِكِ»، و «بالوراثَةِ في البيت المالك»، ولا يعرفون معنى لا انتخاب الخليفة، وقد مات محمد، ولم يترك ولداً، فأولى الناس بعده ابن عمه علي بن أبي طالب، فمن أخذ الخلافة منه «كأبي بكر»، و «وعمر»، و «عثمان»، و «الأمويين»، فقد اغتصبها من مستحقها؛ وقد اعتاد «الفرس» أن ينظروا إلى «المَلِكِ»، نظرة فيها معنى إلهي، فنظروا هذا النظر نفسه إلى «علي»، و «ذريته»، وقالوا: إن طاعة الإمام أول واجب، وإن إطاعته إطاعة الله، (١) اهـ

رأينا في أصل الشيعة:

ولكننا نرى أن السبب في نشأة «الشيعة»، لا يرجع إلى الفرس عند دخولهم في الإسلام، ولا يرجع إلى اليهودية ممثلة في «عبد الله بن سبأ»، وإنما هو أقدم من ذلك. فنواته الأولى ترجع إلى شخصية «علي» — رضي الله عنه — من جانب، وصلته بالرسول — عليه السلام — من جانب آخر.

وتوضيح ذلك أن صلة «علي» بالرسول — عليه السلام — أقدم من الإسلام نفسه:

لم ينس «محمد» — عليه السلام — بعد زواجه «بخديجة» — رضي الله عنها — عطف «أبي طالب» عليه، ورعايته له؛ فقد ضم «أبو طالب» الرسول إليه، وكفله، بعد وفاة جده «عبد المطلب»، وذلك بالرغم من من كثرة عياله، وعدم ثرائه.

وكان من تصرفات المقادير أن أصابت «قريشاً» أزمة شديدة،

(١) فخر الإسلام للدكتور أحمد أمين ص ٣٤٠

فتحدث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع عمه «العباس» وكان من أيسر «بنى هاشم» ، فقال له : إن أخاك «أبا طالب» كثير الغيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه من عياله : آخِذْ من بنيه رجلا ، وتأخذ أنت رجلا ، فنسكاهما عنه ، فقال «العباس» : نعم ، فانطلقا حتى أتيا «أبا طالب» (١) .

وانتهى الأمر بينهما وبينه : أن أخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «عليا» فضمه إليه ، وأخذ «العباس» «جعفرا» .

نشأ «علي» مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - منذ نعومة أظفاره ، فتفتحت عيناه - طفلا - على أكرم مثل للقدوة الحسنة ، ممثلة في الرسول - عليه السلام - ، وتفتحت عيناه على أكرم مثل للود المتبادل بين الزوجين الطاهرين ، والحنان الذي يملأ البيت الكريم ، والرحمة التي تفيض من قلب «محمد وخديجة» ، فيكون من أثرها حمل الكل ، وصلة الرحم ، وقرى الضيف ، والإعانة على نوائب الدهر ، فترك ذلك في نفسه أكرم الأثر . وأوحى الله إلى الرسول - عليه السلام - «وعلى» يومئذ ابن عشر سنين ؛ فلم تتدنس جبهته بالسجود لصنم ، ولم يكن في سن تجترح فيها المعاصي : فاعتنق الإسلام طاهرا .

ولقد أراد قبل إسلامه أن يستشير أباه ، وبات ليلته يفكر في الأمر ، فلم يكذب يغمض له جفن ، فلما أصبح أعلن في ثقة واطمئنان : أنه أسلم ، وأنه في غير حاجة لرأى «أبي طالب» ، وقال : «لقد خلقني الله من غير أن يشاور «أبا طالب» ، فما حاجتي أنا إلى مشاورته لأعبد الله» .

« وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة ، وخرج معه « علي بن أبي طالب ، مستخفياً من أبيه » أبي طالب ، ومن جميع أعمامه ، وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها ، فإذا أمسيا رجعا ، فسكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا ، (١) .

وحين نزلت الآية الكريمة : « وأنذر عشيرتك الأقربين » ، دعى « محمد » عشيرته إلى طعام في بيته ، وحاول أن يحدّثهم ، داعياً إياهم إلى الله ؛ فقطع عنه « أبو لهب » حديثه واستنفر القوم ليقوموا ودعاهم « محمد » في الغداة كرهة أخرى . فلما طعموا قال لهم : ما أعلم إنساناً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتمكم به ، قد جئتمكم بخير الدنيا والآخرة . وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه فأيسم يوازرني على هذا الأمر ؟ فأعرضوا عنه وهموا بتركه . لكن « عليا » نهض ، وهو ما يزال صلياً دون الحلم ، وقال : أنا يا رسول الله في عونك ، أنا حرب على من حاربت . فابتنس « بنو هاشم » وقهقه بعضهم ، وجعل نظرهم ينقل من « أبي طالب » إلى ابنه ، ثم انصرفوا مستهزئين (٢) .

وفي ليلة الهجرة أسرَّ الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى « علي » أن يتسجى بركده الخضر مني الأخضر ، وأن ينام في فراشه ، وأمره أن يتخاف بعده بمكة حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس (٣) .

وآخى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين أصحابه من المهاجرين

(١) سيرة ابن هشام ص ٢٦٣

(٢) حياة محمد للدكتور هيكل : ص ١٤٠

(٣) المصدر نفسه ص ٢١١

والأنصار حين نزلوا المدينة، ليذهب عنهم وحشة الغربة، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشد أزر بعضهم ببعض، ثم أخذ بيد «علي» بن «أبي طالب»، فقال: هذا أخي، فكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - و«علي» بن «أبي طالب» - رضي الله عنه - أخوين (١).

لقد رباه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صغيراً، وكان - رضي الله عنه - يعيش في بيته كأحد أبنائه، وكان أول من أسلم من الذكور، وأخى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بينه وبينه - وزوجه بأحب بناته إليه: «فاطمة» - رضي الله عنها -

ثم إن شجاعته الفذة، وإخلاصه النادر للرسول، وتقواه، وزهده... كل ذلك مشهور لا يحتاج إلى توضيح، ولذلك يقول الدكتور «طه حسين» بحق:

«ولو قد قال المسلمون بعد وفاة النبي: إن «علياً» كان أقرب الناس إليه، وكان ربيبه، وكان خليفته على ودائعه، وكان أخاه بحكم تلك المؤاخاة، وكان ختنه وأبا عقبه، وكان صاحب لوائه، وكان خليفته في أهله، وكانت منزلته منه بمنزلة «هارون» من «موسى» بنص الحديث عن النبي نفسه - لو قد قال المسلمون هذا كله، واختاروا «علياً» بحكم هذا كله للخلافة، لما أبعدوا، ولا انحرفوا (٢)».

ولا غرابة، والأمر كذلك أن «كان جمع من الصحابة يرى أن «علياً» أفضل من «أبي بكر»، و«عمر»، وغيرهما؛ وذكروا أن من كان يرى هذا

(١) سيرة ابن هشام، والروض الأنق: ص ١٨

(٢) عثمان للدكتور طه حسين ص ١٥٢

الرأى وعماراً ، ودمسلان الفارسى ، ودمجابر بن عبد الله ، ودمعباس ،
ودمبنيه ، ودمأبى بن كعب ، ودمحذيفة ، إلى كثير غيرهم^(١) .

ولسكن اجتماع الثقيفة انتهى باختيار دأبى بكر ، - رضى الله عنه -
خليفة للمسلمين ، كما سبق أن بيناه ، فامتنع دعلى ، - رضى الله عنه -
عن البيعة ، لاعتقاده : أنه أحق بالخلافة ، والحديث التالى يبين موقفه .

فى صحيح البخارى : حدثنا ديعجبى ، بن دبكبير ، . . . عن دعائشة ،
أن دفاطمة ، - عليها السلام - بنت النبى - صلى الله عليه وسلم -
أرسلت إلى دأبى بكر ، تسأله ميراثها من رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
بما أقام الله عليه دبالمدينة ، ودمفدك ، وما بقى من خمس خبير فقال أبو بكر :
إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : لا نورث ما تركنا صدقة ،
إنما يأكل آل محمد فى هذا المال ، وإبنى والله لا أغير شيئاً من صدقة
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن حالها التى كان عليها فى عهد
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولأعملن فيها بما عمل به رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - فأبى دأبو بكر ، أن يدفع إلى دفاطمة ، منها شيئاً
فوجدت دفاطمة ، على دأبى بكر ، فى ذلك ، فهجرتة ، فلم تكلمه حتى
توفيت . وعاشت بعد النبى - صلى الله عليه وسلم - ستة أشهر ، فلما
توفيت ، دفنها زوجها دعلى ، ليلاً ، لم يؤذن بها دأبا بكر ، ، وصلى عليها .
وكان دلعلى ، من الناس وجه حياة فاطمة ، فلما توفيت استنكر دعلى ،
وجوه الناس ، فالتمس مصالحة أبى بكر ، ومبايعته ، ولم يكن يبائع تلك
الأشهر ، فأرسل إلى دأبى بكر ، أن اثنتا ، ولا يأتنا أحد معك : كراهية

ليحضر «عمر» ، فقال «عمر» : لا والله لا تدخل عليهم وحدك ، فقال «أبو بكر» : وما عَسَيْتُهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا بِي ؟ والله لَا نَنْهَمُ ؛ فدخل عليهم «أبو بكر» ، فشهد «علي» ، فقال : إنا قد عرفنا فضلك ، وما أعطاك الله ، ولم ننفس عليك خيراً ساقه الله إليك ، ولكنك استبددت علينا بالامر ، وكنا نرى لقرابتنا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نصيباً ، حتى فاضت عيننا أبي بكر ؛ فلما تكلم «أبو بكر» ، قال : والذي نفسى بيده ، لقرابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أحب إلىَّ أن أصل من قرابتي ؛ وأما الذى شجر بيني وبينكم من هذه الأموال : فلم آل فيها عن الخير ، ولم أترك أمراً رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصنعه فيها إلا صنعته . فقال «علي» ، «لأبى بكر» : موعذك العشية للبيعة . فلما صلى «أبو بكر» ، الظهر ، رقى المنبر فشهد وذكر شأن على ، وتحلفه عن البيعة ، وعذره بالذى اعتذر إليه ، ثم استغفر . وتشهد «علي» . فعظم حق «أبى بكر» ، وحدث : أنه لم يحمله على الذى صنع نفاسة على «أبى بكر» ، ولا إنكاراً للذى فضله الله به ، ولكننا كنا نرى لنا فى هذا الأمر نصيباً فاستبد علينا ، فوجدنا فى أنفسنا . فسر بذلك المسلمون ، وقالوا : أصبت . وكان المسلمون إلى على قريباً حين راجع الأمر بالمعروف^(١) (١٥) .

(١) البخارى : ويجب أن نأخذ هذا الحديث بتحفظ فيما يتعلق بتفاصيله وتعبيراته فهو رواية السيدة عائشة - رضى الله عنها - وقد يكون فيه ، بطريقة لا شعورية ، بعض ما يغض من شأن على ، ولكنّه صحيح فيما يعرفنا به من امتناع على عن البيعة ومن تحديد الزمن الذى امتنع فيه ولهذا أهميته .

بايع « علي » ، « أبا بكر » ، في إخلاص المؤمن الصادق الإيمان ، وأخذت حياته تسير في مجراها الطبيعي : زهد ، وتقوى ، وعلم ، وورع ؛ واستمر منارة يهتدى بها الحائر ، ومثلاً أعلى يسير على هداه من رغب عن سُنَنِ الباطل وطمح إلى رضوان الله .

وتوفي « أبو بكر » ، — رضوان الله عليه — بعد أن عهد بالخلافة إلى « الفاروق » ، فاجتمعت كلمة المسلمين على « ابن الخطاب » ، فقادهم جهده إلى مرضاة الله ، وكان « علي » ، في زمنه كما كان في زمن « أبي بكر » ، المنارة والمثل الأعلى .

« وكان كل شئ ميسر « علياً » للخلافة بعد موت « عمر » : قرابته من النبي ، وسابقته في الإسلام ، ومكانته بين المسلمين ، وحسن بلائه في سبيل الله ، وسيرته التي لم تعرف العوج قط ، وشدة في الدين ، وفقه بالكتاب والسنة ، واستقامة رأيه في كل ما عرض من المشكلات .

ولئن تخرج المسلمون من تقديمه على « أبي بكر » : لأنه كان رفيع المكانة عند النبي ، وثاني اثنين في الغار ، ولأنه خلف « النبي » ، على الصلاة بالناس .

ولئن تخرج المسلمون من تقديمه على « عمر » ؛ لمكانة « عمر » ، أولاً ، ولعهده « أبي بكر » ، بالخلافة إليه ثانياً ، لقد كان المسلمون يستطيعون أن يختاروا « علياً » ، للخلافة ، لا يجدون بذلك بأساً ، ولا يلقون فيه حرجاً . ف« عمر » ، قد رشحه ، ومكانته ترشحه ، ثم هو كان بعد ذلك من قوة العصية في العرب عامة ، وفي قريش خاصة بالمنزلة التي كان فيها « عبد الرحمن ابن عوف » ؛ فهو قد أصهر إلى « قريش » ، وأصهر إلى « مضر » ، وأصهر

إلى «ربيعة»، وأصهر إلى «البانية»، وكان له بنون من نسائه على اختلاف قبائلهن. فلو قد ولى الخلافة قبل أن يفترق الناس لكان خليقاً أن يقارب بين العصبيات المتباعدة، وأن يجمع الناس على طاعته، وأن يحملهم على الجادة كما قال «عمر».

ولسكن المسلمين لم يختاروه لأمرين: أحدهما: خوف قريش أن تستقر الخلافة في «بنى هاشم»، إن صارت إلى أحد منهم. وقد بينت الحوادث أن «علياً»، لم يكن لينقل الخلافة بالوراثه؛ فهو قد سار سيرة «النبي»، وسيرة «عمر»، فلم يعهد لأحد من بعده.

والآخر: أن «علياً»، لم يقبل ما عرضه عليه «عبد الرحمن» من أن يبائع على كتاب الله وسنة رسوله، وفعل «أبي بكر»، و«عمر»، لا يحيد عن شيء من ذلك. تحرّج «علي»، من أن يعطى هذا العهد، مخافة أن تضطره الظروف إلى أن يقصّر عن الوفاء به كاملاً، فعرض أن يبائع على أن يلزم كتاب الله وسنة رسوله، وسيرة الشيخين بقدر جهده وطاقته،^(١).

وللمرة الثالثة لم يتول سيدنا «علي»، الخلافة وإنما تولاها سيدنا «عثمان»، واستمر سيدنا «علي»، المنارة والهدى والمثل الأعلى، وحدثت الأحداث التي انتهت بقتل سيدنا «عثمان»،... وتولى سيدنا «علي»، الخلافة فلم يتغير سلوكه ولم ينحرف عن الجادة.

«وقد عاش «علي»، قبل الفتوح كما عاش بعد الفتوح، عيشة هي إلى الخشونة والشظف أقرب منها إلى الرقة واللين: فلم يتجر، ولم يتسع، وإنما اقتصر على عطائه يعيش منه، ويرزق أهله، ويستثمر فضوله في مال اشتراه

يَسْتَبْع ، ثم لم يزد عليه . ولما مات لم تُحص تركته بالآلوف فضلاً عن
عشراتها أو مئاتها أو الملايين ، وإنما كانت تركته كما قال الحسن ابنه ،
في خطبة له : سبعة درهم ، كان يريد أن يشتري بها خادماً .

وكان « علي » أثناء خلافته القصيرة يلبس خشن الثياب والمرقع منها ،
ويحمل الدرة ويمشي في الأسواق ، فيعظ أهلها ويؤدبهم كما كان يفعل « عمر » .
فكان هذا دليلاً على أن « عمر » كان صادق الفراسة حين قال : لو ولسوا
الأجلح نملهم على الجادة ، (١) .

حقاً لقد كان سيدنا « علي » مثلاً سامياً في الدين ، والأخلاق ، ومع
ذلك فإنه لم يكبد يتولى الخلافة بعد مقتل سيدنا « عثمان » ، حتى اضطرب
الامر ، واختل النظام .

أراد سيدنا « علي » أن يقود الناس إلى الآخرة ، فإذا هم متطلعون
إلى الدنيا ، وأراد أن يوجههم إلى الله ، فإذا بالمادة قد غلبت عليهم ،
ولقد عاش طيلة خلافته في جلاذ وصراع ، ضد الأهواء ، والشهوات ،
والدنيا ، وفي النهاية لبق الإمام مصرعه على يد « عبد الرحمن بن ملجم » .
وتغلبت الأهواء والشهوات والدنيا بمثلة في معاوية . انتصرت الدنيا ،
ولسكن كان للآخرة عشاقها ومحبوها ، وهؤلاء لم يتوانوا في نصرة « علي » ،
فلما قتل أخذوا يذكرون حياته الخافلة بصالح الأعمال وجليلها ، وأخذت
صورة علي — بمر الزمن — تلبس شيئاً فشيئاً هالة من الإجلال ...
والتقديس ... والتنزيه ... والربانية ... والالوهية ... وهل
من مزيد ؟

كانت « الشيعة » في بدأ أمرها حجة كحجة « سلمان » الفارسي « لآل البيت » ،
ثم أصبحت حجة ، وعظفاً ، وشفقة ، حينما اعتقد بعض النفوس :
أن « البيت العلوي » لم يأخذ المكانة اللاتقة به في المجتمع . فلما أصبح الظلم :
اضطهاداً ، وتعذيباً ، وتشتيئاً ، وبتراً للأعضاء ، وسماً للعيون ، وقتلاً ...
تسكونت « الشيعة » بالمعنى الاصطلاحي المعروف الآن ، ... وكان رجال
« البيت العلوي » ومن يعطف عليهم يغذون الفكرة ، ويمدونها بما استطاعوا
من مال ، ومن تشجيع ... ولكن الأفكار ، إذ ذاك ، لم تكن تسير
بالمال والتشجيع فحسب ، وإنما كانت تتطلب سنداً من الدين لا مناص منه ؛
ولجأت « الشيعة » إلى القرآن ، وإلى السنة ، تستمد منهما ، في تعسف ،
ما يعينها على ما تريد ... وآل أمر « الشيعة » إلى شيع ، وأفرط الكثير
منها في « علي » ، وغالى ؛ والحب حقاً يعمى ويصم : فكان من ذلك الغلاة ..
ولعل فيما تقدم ما يدل على أن أصل « الشيعة » لم يكن يهودياً ولم يكن
فارسيّاً كما يزعم بعض المستشرقين وإنما نشأت الشيعة نشأة طبيعية ونمت
نموّاً طبيعياً .

فروق الشيعة :

ورغم أن « الشيعة » تفرقت إلى ما لا يكاد يحصى من أحزاب فإنه من
الممكن تقسيمها إلى :

- | | |
|-----------------------|-----------------------------|
| ١ — غلاة | ٢ — إسماعيلية وما تفرع عنها |
| ٣ — إمامية إثنا عشرية | ٤ — زيدية |

أما الغلاة فقد بادوا وانقرضوا ، وقد تبرأ منهم الشيعة : الإمامية
منهم والزيدية .

يقول الشيخ « محمد الحسين آل كاشف الغطاء » ، في رده على بعض الناقدين « للشيعية » : فهل مراده ما يسمونه : « غلاة الشيعة » ، « كالحطابية » ، « والغرابية » ، « والعلياوية » ، و « المُسَخَّمَسِيَّة » ، و « البريعية » ، وأشباهم من الفرق الهالككة المنقرضة ؛ التي نسبتها إلى الشيعة من الظلم الفاحش ، وما هي إلا من الملاحدة : « كالقرامطة » ، ونظائرهم . أما « الشيعة الإمامية » ، و « أئمتهم » ، (ع) فيرمون من تلك الفرق ، براءة التحريم ، ^(١) .

أما « عبد الله بن سبأ » ، الذي يلصقونه « بالشيعة » ، أو يلصقون « الشيعة » به — فهذه كتب « الشيعة » بأجمعها تعلن بلعنه ، والبراءة منه ، وأخف كلمة تقولها كتب رجال « الشيعة » ، في حقه ، ويكتفون بها عن ترجمة حاله عند ذكره في حرف العين هكذا : « عبد الله بن سبأ ، ألعن من أن يذكر ^(٢) » .

وأما « الإسماعيلية » ، وهم منتشرون في الهند والباكستان وجنوب إفريقيا وشرقها فلسنا الآن بصدد الحديث عنهم وعن مذهبهم وقربه وبعده عن الدين وصلته أو عدم صلته بالإفلاطونية الحديثة أو بغيرها من مذاهب وسنترك ذلك لفرصة أخرى إن شاء الله .

سنقتصر في الحديث إذاً على « الإمامية الإثنا عشرية » ، و « الزيدية » ، و « الشيعة الإمامية الإثنا عشرية » ، يمثلون — كما يقول الشيخ « محمد الحسين آل كاشف الغطاء » ، — أكثرية أهل السواد في « العراق » ، و « تسعة أعشار » « إيران » ، و « جماعات في القفقاز » ، من « الاتحاد السوفيتي » ، و « جبل عامل » ، من « الشام » ، و « جزر البحرين » ، و « الكويت » ،

(١) أصل الشيعة ص ٤٦ — ٤٧ (٢) أصل الشيعة ص ٥٠

وسواحل « الأحساء » ، و « الهند » ^(١) .

ويقول « الدكتور أحمد أمين » : « يبلغ « الإمامية » الآن نحواً من سبعة ملايين في « فارس » ، ونحو مليون ونصف في « العراق » ، وخمسة ملايين في « الهند » ^(٢) .

و « الزيدية » هم « الشعب اليمني » على الخصوص .

١ — « الإمامية والزيدية يتفقون على أن « علياً ، أفضل الخلق بعد رسول الله — صلى الله عليه وسلم .

٢ — وأنه لذلك كان أحق بالخلافة من « أبي بكر » ، و « عمر » .
أما فيما عدا هذا ، فلا يكادون يتفقون في شيء .

مذهب الإمامية :

و « الإمامية » يجمعون على أن النبي — صلى الله عليه وسلم — نص على استخلاف « علي » بن « أبي طالب » ، باسمه ، وأظهر ذلك وأعلنه ، وأن أكثر الصحابة ضلوا بتركهم الاقتداء به بعد وفاة النبي — صلى الله عليه وسلم — وأن الإمامة لا تكون إلا بنص وتوقيف ، وأنها قرابة ، وأنه جائز للإمام في حال النقص أن يقول : إنه ليس بإمام ، وأبطلوا جميعاً الاجتهاد في الأحكام وزعموا أن الإمام لا يكون إلا أفضل الناس ، وزعموا أن « علياً » — رضوان الله عليه — كان مصيباً في جميع أحواله ، وأنه لم يخطئ في شيء من أمور الدين ، وأنكروا الخروج على أئمة الجور ، وقالوا :

(١) أصل الشيعة

(٢) ضحى الإسلام ص ٢١٣

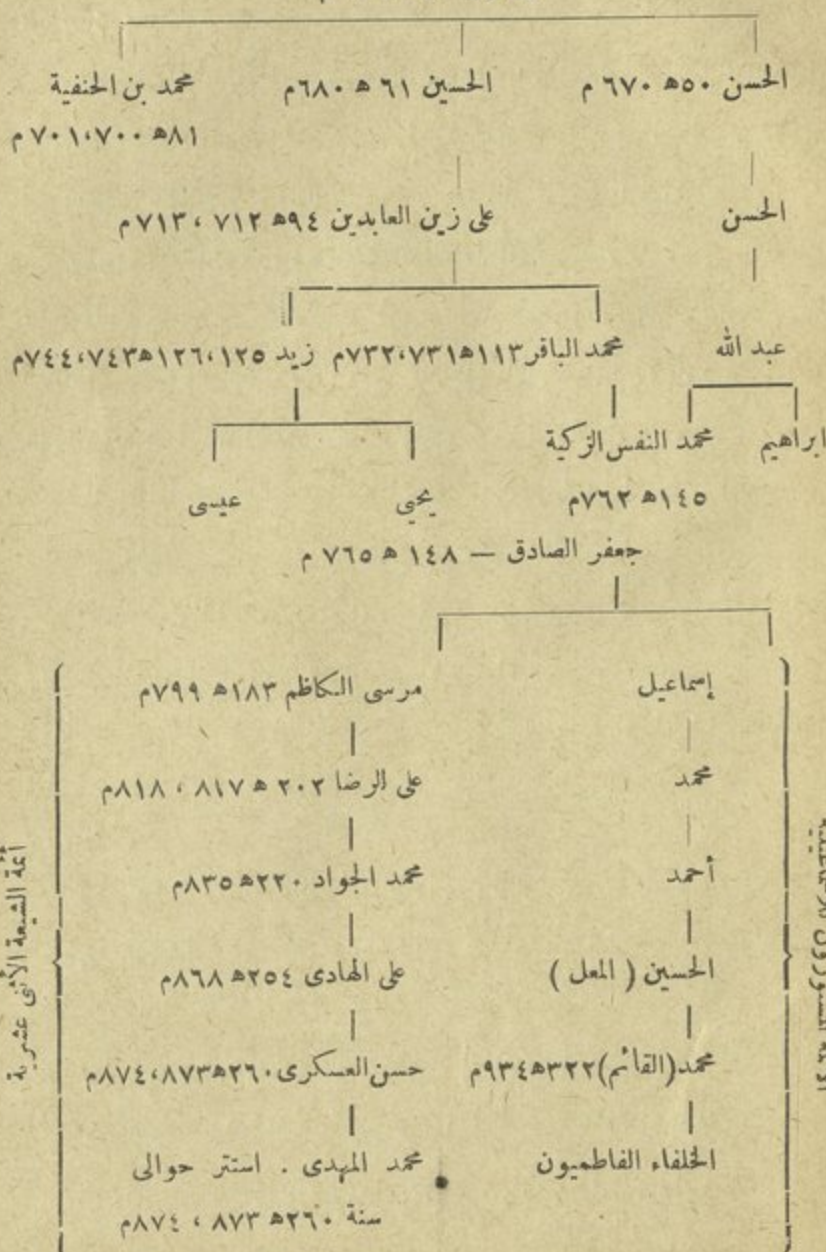
ليس يجوز ذلك دون الإمام المنصوص على إمامته ...
وهم يُدْعَوْنَ «الإمامية» ، لقولهم بالنص على إمامة «علي ، بن
«أبي طالب» ،^(١) .

وسميت : «الإمامية» الاثنا عشرية ، لأنها تُسلسِلُ الأئمة إلى الثاني
عشر «محمد بن الحسن بن علي» ، وهو الغائب المنتظر عندهم ، الذي يدعون
أنه يظهر فيملاً الأرض عدلاً ، بعد أن ملئت ظلماً وجوراً .
والشجرة التالية تبين تسلسل الأئمة عند فرق «الشيعة» ، نقلاً عن المستشرق
«برنارد لويس» .

(١) مقالات الإسلاميين ص ٨٧ — ٨٨ ط النهضة المصرية .

آل علي

علي توفي ٤٠ هـ ٦٦١ م



أئمة الشيعة الاثني عشرية

الأئمة المستوروون الاسماعيلية

السيرة :

وكان «الإمامية» ، و«الزيدية» ، في بدء أمرهما ، حزباً واحداً ، ثم اختلفا ؛ والسبب في اختلافهما لم يكن أصلاً من أصول الدين ، وإنما كان حول «الإمامة» ؛ وهو يبين وجهة نظر كل منهما فيها .

يقول «البغدادى» : وسبب افتراقهما أن «زيد» بن «علي» قد بايعه على إمامته خمسة عشر ألف رجل من أهل الكوفة ، وخرج بهم على وإلى العراق ، وهو «يوسف» بن «عمر» ، الثقفى عامل «هشام» بن «عبد الملك» ، على العراقيين ؛ فلما استمر القتال بينه وبين «يوسف» بن «عمر» ، الثقفى ، لواله : إننا ننصرك على أعدائك بعد أن تخبرنا برأيك في «أبي بكر» ، و«عمر» ، اللذين ظلما جدك «علي» بن «أبي طالب» .

فقال «زيد» : إنى لا أقول فيهما إلا خيراً ، وما سمعت أبى يقول فيهما إلا خيراً ؛ وإنما خرجت على «بنى أمية» الذين قاتلوا جدى «الحسين» ، وأغاروا على المدينة يوم الحرة ، ثم رموا بيتاً لله بحجر «المنجنيق» ، والنار ، ففارقوه عند ذلك — حتى قال لهم : رفضتمه فى اومن يومئذ سموا : رافضة . . .

ربقى «زيد» فى مقدار مائتى رجل ، وقاتلوا جند «يوسف» بن «عمر» ، الثقفى ، حتى قتلوا عن آخرهم ، وقتل «زيد» ، ثم نبش من قبره وصلب ، ثم أحرق بعد ذلك ^(١) .

والزيدية يرون أن الأدلة الخاصة بإمامة «علي» ، — رضى الله عنه — اقتضت تعيينه بالوصف لا بالشخص ؛ وتقصير الناس إنما أتى من حيث

(١) الفرق بين الفرق للبغدادى : ص ٢٥ ط المعارف .

إنهم لم يضعوا الوصف في موضعه . وهم لا يتبرأون من « الشيخين » ، ولا يطعنون في إمامتهما ، مع قولهم بأن « علياً » ^(١) أفضل منهما : ذلك أنهم يجوزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل . ويشترطون أن يكون « الإمام ، عالماً ، زاهداً ، جواداً ، شجاعاً ، ويخرج داعياً إلى إمامته . وقد كان « زيد » يناظر أخاه « محمد الباقر » ، على اشتراط الخروج في الإمام ، فيلزمه « الباقر » ألا يكون أبوهما « زين العابدين » ، إماماً ، لأنه لم يخرج ، ولا تعرض للخروج .

وكان « الباقر » ينعي عليه أيضاً مذاهب « المعتزلة » ، وأخذة إياها عن « واصل » بن « عطاء » ^(٢) .

و« الزيدية » سموها بذلك نسبة إلى صاحب المذهب ، وهو « زيد بن علي ابن الحسين السبط » .

وقد ساق « الزيدية » الإمامة « على مذهبهم فيها ، وأنها باختيار أهل الحل والعقد ، لا بالنص ؛ فقالوا بإمامة « علي » ، ثم ابنه « الحسن » ، ثم أخيه « الحسين » ، ثم ابنه « علي زين العابدين » ، ثم ابنه « زيد » بن « علي » ، وهو صاحب هذا المذهب ؛ وخرج « بالسكوفة » ، داعياً إلى « الإمامة » ، فقتل وصلب .

وقال « الزيدية » بإمامة ابنه « يحيى » ، من بعده ، ففضى إلى « خراسان » ، بعد أن أوصى إلى « النفس الزكية » ، فخرج بالحجاز ، وتلقب « بالمهدي » ، فأرسل

(١) ابن خلدون ص ١٣٩ ط عبد الرحمن محمد .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٤٠

إليه « المنصور » جيشاً فقتل بعد أن عهد إلى أخيه « إبراهيم » الذى قتل « بالبصرة » (١)

الشيعية وأصول الاسلام :

نرى مما سبق أن الشيعة تكونت فى المبدأ حباً فى « على » : لقرابته من الرسول ، ولشخصيته الفذة ثم تطورت فأصبحت حزب البيت العلوى . ونظرياتها دارت ، أولاً وبالذات ، حول الإمامة ، وحول الإمام : « فالمهدى » ، إمام من أئمتهم يعود فيملأ الأرض عدلاً ، كما ملئت جوراً ، و « العصمة » ، لأئمتهم لا شك فيها بحسب نظرهم ، و « الغيبة » التى توقعها « الرجعة » ، إنما هى لإمام ، هو آخر الأئمة اختفى ، وهم فى انتظار عودته مهما طال الزمن ، و « الثَّقِيَّة » ، إنما وجبت لإحكام العمل حتى يتولى « البيت العلوى » الرياسة

أين الخلاف فى الأصول فى كل هذا ؟

يقول الشيخ « محمد الحسين آل كاشف الغطاء » فيما يتعلق بموقف « الشيعة الإمامية » من الغلاة الذين يتبرأ منهم كل مسلم :

أما الشيعة الإمامية ، وأعنى بهم جمهرة العراق ، وأيران ، وملايين من مسلمى الهند ، ومئات الألوف فى سوريا ، وأفغان ؛ فإن جميع تلك الطائفة ، من حيث كونها شيعة يبرمونها من تلك المقالات ، ويعيدونها من أشنع المكفر والضلال . وليس دينهم إلا التوحيد المحض ، وتنزيه الخالق عن كل مشابهة للمخلوقات ، أو ملايسة لهم فى صفة من صفات النقص ، والإمكان ، والتغير ، والحدوث ؛ وما ينافى وجوب الوجود ،

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٤٠ ط عبد الرحمن محمد .

والقدم ، والألزلية ؛ إلى غير ذلك من التنزيه ، والتقديس المشحونة به مؤلفاتهم في الحكمة ، والكلام من مختصرة : كالتجريد ؛ أو مطبولة كالأسفار ، وغيرهما مما يتجاوز الآلاف ؛ وأكثرها مطبوع منتشر ، وجلها يشتمل على إقامة البراهين الدامغة على بطلان التناسخ ، والاتحاد ، والحلول ، والتجسيم ^(١) .

رأبنا في الشيعة :

« الشيعة » حزب ، وهم لذلك يذيقون كل ما يقف عقبة في سبيل توطيد مركزهم ، ويتهافتون على كل ما يتوهمون أنه يساعدهم ، ويؤولون التاريخ حسب ماتوى نفوسهم : فإذا ما تركنا العصبية جانبا فإننا نرى في إخلاص أنه لو كان هناك ما يشبه - ولو من بعد - أن يكون رغبة « الرسول » في أن يتولى « على » الأمر من بعده ، لسارع « أبو بكر » و « عمر » إلى بيعته . إن إخلاص « أبي بكر » و « عمر » لله ، ولرسوله ، وللدن ، أسمى وأجل من أن يتطرق إليه ظل من الشك .

وسيدنا « عمر » - رضى الله عنه - حينما دهمته الطعنة المشثومة ، وأوشك أن يلاقى ربه ، وأراد أن يخرج من الدنيا ولم يأل جهدا في الإخلاص لربه ، وللأمة الإسلامية ... لم يول « عليا » وإنما جعل الأمر شورى بين ستة نفر هم أمثل الأمة الإسلامية في نظره : ومن بينهم « على » - رضوان الله عليه - .

ولم ينته مجلس الشورى هذا باختيار « على » .

ولما تنازل « عبد الرحمن » بن « عوف » عن ترشيح نفسه ليختار

الخليفة ، وكان الأمر بيده لم يختار « عليا » وإنما اختار « عثمان » — رضى الله عنهما .

ثم إنه قد امتنع عن بيعته « على » « سعد » بن « أبي وقاص » بطل « القادسية » وفتح « فارس » ، وأول من رمى بسهم فى سبيل الله ، وأحد هؤلاء الذين توفى « الرسول » وهو راض عنهم ، ومطمئن إليهم . وامتنع عن بيعته « عبد الله » بن « عمر » ، الرجل الزاهد ، الورع ، الذى آثر الله فى كل تصرفاته .

وامتنع عن بيعته أيضا « أسامة » بن « زيد » ؛ وصلته « بالرسول » معروفة ، وتقدير « الرسول » له أشهر من أن يتماهى فيه اثنان . وامتنع عن بيعته « محمد » بن « مسلمة » ، ومكانته فى الانصار معروفة . وامتنع عن بيعته غير هؤلاء ممن أراد السلامة لدينه ، والبعد عن الفتن ، على أن أصول الإسلام العامة تستوجب المساواة بين المسلمين فى الحقوق والواجبات وتحمل الأكرم هو الاتقى .

والحق أن الأمة الإسلامية ، على اختلاف طبقاتها تقدر « عليا » تقديرا كريما ، وتنزله من نفسها منزلة سامية ؛ أما ما وراء ذلك من آراء « الشيعة » الغالية منهم والمعتدلة ، فليس ديننا وليس ضرورة عقيدة وإننا لنعتقد فى إخلاص أن الزمن كفيفل يرد « الشيعة » إلى السنن القويم . وبالله التوفيق .

(٢٢)

الخوارج : نشأتهم

والشيعه ، و حزب ديني ، كما رأينا ، والخوارج ، هم ، الحزب الديني المعارض . أما معاوية ، وأنصاره فإنهم ليسوا ، حزباً دينياً ، وإنما هم ، حزب سياسي ، بحث . أما كيفية نشأة ، الخوارج ، فإنه لما صار ، علي ، و معاوية ، إلى « صَفَيْن » ، وقاتله ، علي ، حتى انكسرت سيوف الفريقين ، وَنَصَلَتْ رِمَاحُهُمْ ، وذهبت قواهم ، وجثوا على الركب ، فَسَوْهُمْ بعضهم على بعض ، قال ، معاوية ، « لعمر بن العاص : يا عمرو ، ألم تزعم أنك لم تقع في أمر فظيع فأردت الخروج منه إلا خرجت ؟ قال : بلى اقال فما المخرج بما نزل ؟ قال له ، عمرو بن العاص : فلي عليك ألا تخرج ، مصر ، من يدي ما بقيت قال : لك ذلك ، ولك به عهد الله وميثاقه ، قال : فَأَمَرَهُ بالمصاحف فترفع ، ثم يقول أهل الشام ، لأهل العراق : يا أهل العراق كتاب الله بيننا وبينكم ، الْبَقِيَّةُ الْبَقِيَّةُ ، فإنه إن أجابك إلى ما تريده خالفه أصحابه وإن خالفك خالفه أصحابه . وكان ، عمرو بن العاص ، في رأيه الذي أشار به كأنه ينظر إلى الغيب من وراء حجاب رقيق ^(١) ، فأمر ، معاوية ، أصحابه برفع المصاحف وبما أشار عليه ، عمرو بن العاص ، ففعلوا ذلك ، فاضطرب أهل ، العراق ، علي ، علي ، — رضوان الله عليه — وأبوا عليه إلا التحكيم ، وأن يبعث ، علي ، حَكَمًا ، و يبعث ، معاوية ، حَكَمًا

فأجابهم « علي ، إلى ذلك بعد امتناع أهل « العراق ، عليه ألا يجيبهم إليه ، فلما أجاب « علي ، إلى ذلك ، وبعث « معاوية ، وأهل « الشام ، « عمرو بن العاص ، « حكماً وبعث « علي ، وأهل « العراق ، « أباموسى ، « حكماً وأخذ بعضهم على بعض اليهود والمواثيق — اختلف أصحاب « علي ، عليه ، وقالوا : قال الله تعالى : فقاتلوا التي تبغى حتى تنفي « إلى أمر الله ولم يقل حاكمهم ، وهم البغاة ، فإن عدت إلى قتالهم وأقررت على نفسك بالكفر إذ أجبتهم إلى الحكم ، وإلا نابذناك وقاتلناك ، فقال « علي ، - رضوان الله عليه - : قد أبيت عليكم في أول الأمر فأبيتم إلا إجابتهم إلى ما سألوا ، أجبناهم وأعطيناهم العهود والمواثيق ، وليس يسوغ لنا الغدر ، فأبوا إلا خلعه وإكفاره « بالتحكيم ، وخرجوا عليه ، فسموا : « خوارج » . لأنهم خرجوا على « علي بن أبي طالب ، - رضوان الله عليه - (١)

ألقاب الخوارج :

و « للخوارج ، ألقاب عدة : منها : الوصف لهم بأنهم « خوارج ، : ومنها : « الحرورية ، ، و « الشراة ، ، و « المارقة ، ، و « المحكمة ، .

وهم يرضون بهذه الألقاب كلها ، إلا « المارقة ، ، فإنهم يشكرون أن يكونوا « مارقة ، من الدين ، كما يبرق السهم من الرمية (٢) .

والسبب الذي سموا له : « خوارج ، : خروجهم على « علي بن أبي طالب ، .

(١) مقالات الاسلاميين لأبي الحسن الأشعري ص ٦٤ ط النهضة .

(٢) مقالات الإسلاميين ص ١٩١

والذى له سموا : « محكمة » : إنكار عم « الحكمين » ؛ وقولهم : لا حكم إلا لله .

والذى له سموا : « حرورية » : نزولهم بـ « حروراء » فى أول أمرهم .
والذى له سموا : « شراة » : قولهم : « شريننا أنفسنا فى طاعة الله ،
أى بعناها بالجنة » (١) .

ما يجمع الخوارج :

وقد اختلفوا فيما يجمع « الخوارج » على افتراق مذاهبهم : فذكر
« السكبي » فى مقالاته (٢) : أن الذى يجمع « الخوارج » على افتراق مذاهبها :
« إكفار » على « ، و « عثمان » و « الحكمين » و « أصحاب الجمل » ، وكل من
رضى بتحكيم « الحكمين » ؛ والإكفار بارتكاب الذنوب ؛ ووجوب
الخروج على الإمام الجائر .

ويرى « أبو الحسن الأشعري » : أن « الخوارج » بأسرها يثبتون
إمامة « أبى بكر » و « عمر » ، وينكرون إمامة « عثمان » — رضوان الله
عليهم — فى وقت الأحداث التى نقم عليه من أجلها ، ويقولون بإمامة
« على » قبل أن يحكم ، وينكرون إمامته لما أجاب إلى التحكيم ؛ ويكفرون
« معاوية » و « عمرو بن العاص » ، و « أباموسى الأشعري » ؛ ويرون
أن الإمامة فى « قريش » وغيرهم إذا كان القائم بها مستحقا لذلك ؛
ولا يرون إمامة الجائر (٣) .

(١) مقالات الإسلاميين ص ١٩١

(٢) الفرق بين الفرق : ص ٥٥ ط المعارف

(٣) مقالات الإسلاميين : ص ١٨٩ النهضة المصرية

ولم يرض « الأشعري » ما حكاه « السكبي » من إجماعهم على تكفير مرتكب الذنوب .

✓ والحق أن « النجّادات » من « الخوارج » لا يكفرون مرتكبي الذنوب من موافقيهم ؛ ولقد قالوا : إن صاحب الكبيرة من موافقيهم كافر نعمة وليس بكافر دين ^(١) .

النفاسه بينهم وبين الامام علي :

ولم يبدأ الامام « علي » في حريمهم إلا بعد أن أرسل « ابن العباس » لمناقشتهم وبعد أن ناقشهم هو نفسه . وفيما يلي نمط مختصر مما كان يدور إذ ذاك فقد وقف عليهم الامام « علي » وقال : يا قوم ماذا نقيم على حتى فارقتوني لأجله ؟ قالوا قاتلنا بين يديك يوم الجمل ، حتى هزمنا أصحاب الجمل ، فأبحت لنا أموالهم ، ولم تبج لنا نساءهم وذراريهم ١١١ وكيف نُحل مال قوم وتحرم نساءهم وذراريهم ؟ وقد كان ينبغي لك أن تحرم علينا الأمرين معا أو تبيحهما لنا معا ١١١ فقال « علي » — رضوان الله عليه — أما أموالهم فقد أبحتنا لكم بدلا مما أغاروا عليه من « بيت المال » الذي كان بالبصرة قبل أن أصل إليهم ، ولم يكن لنسائهم وذراريهم ذنب ، فإنهم لم يقاتلونا ، وكان « حكمهم » ، « حكم » المسلمين ؛ ومن لم يُحكم له بالكفر من النساء والوالدان لم يجز سببه ولا استرقاقه ، وبعد ، لو أبحت لكم نساءهم فمن كان منكم يأخذ عائشة : زوج النبي — صلى الله عليه وسلم — في قسمه ؟

فلما سمعوا هذا الكلام خجلوا وقالوا : قد نقمنا عليك سبباً آخر وهو : أنك يوم « التحكيم » كتبت لإسمك في كتاب الصلح : إن أمير المؤمنين « علي » ابن « أبي طالب » ، و « معاوية » حكما فلانا ، فنازعك « معاوية » ، وقال : لو كنا نعلم أنك أمير المؤمنين ما خالفناك ، فمحوت اسمك ، فإن كانت إمامتك حقاً فلم رضيت به ؟ فقال أمير المؤمنين : إنما فعلت كما فعل النبي - صلى الله عليه وسلم - حين صالح « سهيل » بن « عمرو » وكتب في كتاب الصلح : هذا ما صالح عليه « محمد » رسول الله « سهيل » بن « عمرو » ، فقال « سهيل » : لو علمنا أنك رسول الله ما خالفناك ، ولكن اكتب لإسمك واسم أبيك ، فأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بذلك ، حتى كتب : هذا ما صالح عليه « محمد » بن « عبد الله » ، « سهيل » بن « عمرو » ، فقال لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « إنك ستبتلى بمثله يوماً ما » . فالذي فعلته كان بإذنه ، واقتداء به - صلى الله عليه وسلم -

قالت الخوارج : لم قلت للحكمين : إن كنت أهدى أهل للخلافة فأثبتاني ؛ فإن كنت في شك من خلافتك فغيرك بالشك فيك أولى .

فقال « علي » - رضوان الله عليه - إنما أردت أن أنصف الخصم ، وأسكن الثائرة ، ولو قلت « للحكمين » احكما لي لم يرض بذلك « معاوية » ، وهكذا فعل النبي - صلى الله عليه وسلم - مع نصارى نجران ، حين دعاهم إلى المباهلة فقال : تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل : فنجعل لعنة الله على الكاذبين وهذا إنما قاله على سبيل الإنصاف ، لا على سبيل التشكك ، وهو كقوله تعالى : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين » ولهذا حكم النبي - صلى الله عليه وسلم -

عليه وسلم — «سعد» بن «معاذ» في «بني قريظة» ، والحق في الحقيقة كان لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثم إن «حكم» النبي — صلى الله عليه وسلم — «حكم بالعدل» ، و«حكمي» الذي حكّمته خُذع فكان من الأمر ما كان (١) .

ولكن السبب الرئيسي في خروجهم ، هو ما ذكرناه عند ما تحدثنا عن نشأتهم .

تقديم الخوارج :

وليس من همتنا هنا أن نستفيض في بيان «فرقهم» المتعددة وما بينها من فروق واختلافات فإن ذلك من وجهة النظر الفلسفي البحث لا قيمة له إذ أن «الخوارج» ، باعتبارهم «خوارج» ، لا رأى لهم — خاصاً بهم — في مسائل الدين الأساسية من إيمان بالله ومن بحث في صفاته ومن دراسة في البعث الخ .

وقد كفانا الإمام «علي» مؤونة الرد عليهم في موقفهم منه . أما رأيهم في «الإمامة» فإنه هو الرأي الذي يؤيده الاتجاه الحديث ، ويؤيده كل مخلص لدينه ووطنه .

ورأيهم في مرتكب الكبيرة لم يتفقوا جميعاً عليه ، ويكفيها في هذا المقام أن نعيد ثانية قول الله تعالى «قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله» .

(١) التبصير للإسفرائيلي ص ٢٧ — ٢٨ ، والفرق بين الفرق

(٣)

المرجئة : المرجئة ومؤلفو الأدبانية

إن حديث مؤرخي الملل والنحل عن « المرجئة » فيه خلط كثير ، ولا يمكن للإنسان أن يستخلص مذهبهم إلا بعد إمعان في البحث في مختلف الكتب ، وبعد موازنة وتروى وتعمق في النظر . والشيخ « زاهد الكوثري » يقول بحق عن صاحب « التبصير » : وللمصنف تساهل في شرح مذاهب « المرجئة » . اهـ

هذا التساهل في شرح مذاهب « المرجئة » لا يختص به صاحب « التبصير » . فحسب : ذلك أن « الشهرستاني » يذكر « فرق المرجئة » فيذكر من بينها مثلاً « مرجئة الخوارج » والواقع أنه ليس في « الخوارج مرجئة » ، و « الخروج » لا يمت إلى « الإرجاء » بأية صلة ؛ وهذا التعبير من ناحية معناه تعبير خطأ .

ويذكر « الشهرستاني » « مرجئة القدرية » .

« والقدرية » لفظ كان يطلق على « المعتزلة » و « المعتزلة » و « وعيدية » فلا يمكن أن يكون بينهم « مرجئة » والتعبير من ناحية المعنى خطأ أيضاً حقيقة أن هناك « مرجئة » يقولون « بالاختيار » ولكن القول بـ « الاختيار » وحده شيء والاعتزال شيء آخر .

ثم إن « الشهرستاني » يتعجب من « غسان » المرجيء ، لعمري أبا حنيفة من « المرجئة » ، ويقول : « ولعله كذب كذلك عليه » ، ويأخذ في تبرئة

« أبى حنيفة » عن تهمة « الإرجاء » وينتجّل مختلف الأسباب لإخراجه من « المرجئة » ، ولسكنه في نهاية الفصل الذي عقده في كتابه « الملل والنحل » عن « المرجئة » يذكر رجال « المرجئة » فيعد من بينهم « أبى حنيفة » و « أبى يوسف » و « محمد بن الحسن » . فأنت ترى من ذلك أن « الشهرستاني » يكذب من عدّ « أبى حنيفة » من « المرجئة » ثم لا تكاد تمضى بضع صفحات حتى تراه ، هو نفسه ، يعدّه من « المرجئة » .

وإذا بحثت عن سبب النفور من « المرجئة » تفجؤك في كل مكان العبارة المشهورة التي تعزى إليهم : « لا تضر مع الإيمان معصية ولا تنفع مع الكفر طاعة » . وإذا سألت عن معنى هذه الجملة في دقة لا تكاد تقف على معنى محدد لها ، أو تقف على معنى بشع — يلقى دون مبالاة — كما يقول « أبو البقاء » في الكلبيات ص ٣٥٠ ط بولاق : « المرجئة » : هم يحكمون بأن صاحب الكبيرة لا يعذب أصلا ، وإنما العذاب للكفار — اهـ

أكان « المرجئة » يقولون ذلك حقاً ؟ أم أن « أبى البقاء » لم يصور مذهبهم على ما هو عليه . إن « الأشعري » في المقالات يقول : واختلفت « المرجئة » في جوار أهل القبلة : هل يجوز أن يخلدهم الله في النار ، أن أدخلهم النار ، على خمسة أقاويل من ذلك نرى أن « الأشعري » يذكر اختلافهم ، لا في دخول النار فحسب ، وإنما في الخلود فيها ، وفرق شاسع بين هذا القول وقول « أبى البقاء » ، فأى الرأيين هو الحق ؟

ثم إنك لا تعدم أن تجد من يعمل النفور من « المرجئة » بالحديث : « المرجئة مجوس هذه الأمة » مع أنه حديث غير صحيح أصلا .

وحديث : صنفان من أمي ليس لهما من الإسلام نصيب :
« المرجئة » ، « والقدرية » حديث موضوع !
وليس بين أيدينا كتب « للمرجئة » نستخلص منها مذهبهم اكل ذلك لم
يكن من السهولة بمكان استخلاص الحق فيما يتعلق بهم .

نشأة المرجئة وتسميتهم

كانت نشأة « المرجئة » نشأة طبيعية ، : ذلك أن البيئة الإسلامية حينئذ
كانت منقسمة على نفسها انقساماً منسكراً ، وكل قسم منها يرمى الأقسام
الأخرى بالكفر والضلال من غير ما تخرج . كان في البيئة الإسلامية
« خوارج » يرمون « علياً » ومن تابعه ، و« معاوية » ومن تابعه بالكفر
والضلال ؛ وكان فيها « عثمانيون » يعلنون أن من عداهم « علويين » كانوا
أم « خوارج » كفار مارقون ؛ « والشيعه » يكفرون هؤلاء وأولئك .
وكل يشحذ ذهنه ويُسعمل تفكيره ، ويبدل ما استطاع من جهد في الإتيان
بالحجج لتبرير موقفه ؛ وكانت حجج كل فريق تأتي أرسالا ، وتثالا اثبالات ،
وتلبس صورة براقة : تأخذ بالآلالباب ، وتستولى على الأفتدة . ولم يأل
« العرب » - الذين وصفهم القرآن بأن ألسنتهم حداد وأنهم ألداء الخصام -
جهداً ، في تصوير خصومهم بأنهم حزب الشيطان ، وتصوير أنفسهم بأنهم
حزب الله .

ما هو الحق إذاً ياترى من بين هذه الحجج التي تتصارع ؟ رأى قوم
أن معرفة ذلك أمر عسير . ما الموقف الحكيم إذا ؟ إن الموقف الحكيم :
أن زجىء أمرهم إلى الله ، ومن هنا كان اسم المرجئة .

آءاهم :

إن هؤلاء الذين يتصارعون بشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ وهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويحجون البيت ، وهذه كلها علامة المسلم الظاهرة ، وهى التى تدل على أن من أتى بها كان مسلماً .
ثم إن وحدة الأمة التى عليها يرتكز عزها ومجدها ، وبها نصرة الإسلام وانتشاره وإعلاء كلمة الله — هذه الوحدة التى يحرص عليها كل مسلم : تقتضى أن لا تتنازع بالكفر بعد الإيمان .

« العلويون » ، إذآ ، و « العثمانيون » ، و « الجوارح » ، مسلمون .
ولكن هؤلاء القوم يحارب بعضهم بعضاً ، ويقتل بعضهم بعضاً ويأتون أعمالاً كثيرة منكرة متبادلة فيما بينهم . أهم مع ذلك مؤمنون ؟ أليس للإيمان صلة بالأعمال ؟

✓ رأى المرجئة أن الأعمال شىء وأن الإيمان شىء آخر : فالإيمان هو التصديق بالقلب ، فى ثقة واطمئنان ؛ والأعمال من فعل الجوارح . حقيقة : أن الإيمان من شأنه أن يصدر عنه العمل ، ولكن ليس من المحتم أن يصدر عنه العمل ، فقد تحول الحوائل ، وتمنع الظروف عن العمل ، ويكون الإيمان مجرد تصديق قلبى . وقد قال الله تعالى : « إلامن أكرهه وقلبه مطمئن بالإيمان » .

وأمر الإيمان إذآ ، والكفر ، مرده إلى الله الذى يعلم السرائر . ذلك أنه أمر قلبى لا تراه الأعين ، ولا تسمعه الآذان ؛ وأمر كل إنسان إذآ إلى الله وهو وحده الذى يوفيه حسابه .

✓ ولكن جريمة القتل التى ترتكب ، وجريمة التعدى على الأعراض

التي تنتهك ، ألا يخرج ذلك الإنسان عن حظيرة الإيمان ؟ هل تخرج الكبيرة المؤمن عن إيمانه ؟ يرى « المرجئة » أن الإيمان هو التصديق كما سبق أن ذكرنا . والتصديق لا يزيله إتيان الكبيرة ؛ فالمصدق العاصي مؤمن عاصي ؛ لم يزل عنه وصف الإيمان لعصيانه ، وسيتولى الله حسابه .

ولسكن هل مقتضى الجريمة الخلود في النار ؟ يرى « المرجئة » أن الخلود في النار خاص بالكفار ، أما المؤمن فقد يعفو الله عنه وقد يعاقبه ، ولكن مصيره في النهاية الجنة ؛ « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم » ، « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

✓ مرد الأمر في العقوبة والمشوبة إذآ ، إلى مشيئة الله الحرة المطلقة ، وعلى كل فآل المؤمنين في النهاية الجنة هذا رأى جمهورهم ولكن قلة منهم رأيت أن مآلهم إنما مرده إلى الله الذي لا يتحتم عليه شيء .

✓ نرى من هذا أن نشأة « المرجئة » كانت طبيعية ، وأن أبحاثهم إنما دارت حول تحديد الإيمان ، وحول ما يترتب على هذا التحديد من خلود في النار أو عدمه . ونريد الآن أن نذكر آراء « فرقتين » من « فرقهم » بعد أن ذكرنا الأصل الذي يجمعهم ، وقد نعمدنا ذكر رأى هاتين « الفرقتين » بالذات لأن الأولى منهما وهى : « اليونسية » ، ويعنها « الشهرستاني » من « المرجئة الخالصة » ربما كانت السبب في القولة الشائعة : « لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة » . وفي وهم « أبي البقاء » : « صاحب الكبيرة لا يعذب أصلاً » .

« الفرقة » الثانية : هى « فرقة أبي حنيفة وأصحابه » .

اليونانية :

« اليونانية » : هم أصحاب « يونس » بن « عون » ، مروقد رأى أن الإيمان إنما هو المعرفة بالله ، والخضوع له ، ويتمثل في شيئين : أحدهما : ترك الاستكبار عليه ، والثاني : المحبة له ، فمن اجتمعت فيه هذه الخصال فهو مؤمن .

وللمحبة لله والخضوع له عند « يونس » شأن كبير ؛ يجب أن يكون الخضوع لله على خلوص و يقين . وأن تكون المحبة له صافية ، خالصة من كل شائبة ، يجب أن يسيطر الخضوع ، والمحبة على القلب سيطرة تامة ؛ ومن كان هذا شأنه لا يتأتى أن تصدر عنه معصية ، إنه - ولا مرية في ذلك - لا يمكن أن يعتمد المعصية ؛ ومن الجائز أن تصدر عنه هفوة لا عن عمد وهذه لا تضره ؛ إنما لا تضره في يقينه وإخلاصه ، ولا تضره في خضوعه ومحبته ، ولا تضره في صلته بالله ، بسبب يقينه وإخلاصه وخضوعه ومحبته ؛ وهو لا شك تائب منها مستغفر .

« والمؤمن إنما يدخل الجنة بإخلاصه ومحبته » لا بعمله وطاعته ^(١) . على ضوء هذا يمكننا أن نفهم ما يعزى إلى « المرجئة » من أنه لا تضر مع الإيمان معصية ، ويمكننا أيضاً أن نفهم قول « الشهرستاني » ، شارحاً رأى « يونس » : من أن الطاعة ليست جزءاً من الإيمان ، ولا يضر تركها حقيقة الإيمان ، ولا يعذب على ذلك ؛ إذا كان الإيمان خالصاً ، واليقين صادقا ^(٢) .

وبعد هذا الضوء الذي ألقيناه على « اليونانية » ترى البعد الشاسع بين

(١) الشهرستاني : ص ٢٦١ ط بدران (٢) نفس المصدر .

مذهب « المرجئة » في روحه وجوهره ، وقوله يرسلها « أبو البقاء »
في شرحه له وتفسيره .

ويقول « الشهرستاني » عن فرقة من فرق « المرجئة » هي : « الثوبانية » :
« ومن العجب ! أنهم لم يحزموا القول بأن المؤمنين من أهل التوحيد
يخرجون من النار لا محالة ،
ولكل ما قدمنا ينبغي أن نأخذ كلام مؤرخي « الملل » بشيء من الحذر .

أبو حنيفة وأصحابه :

ويقول شيخ أهل السنة والجماعة « الإمام الأشعري » في كتابه « مقالات
الإسلاميين » : « والفرقة التاسعة ، من « المرجئة » : « أبو حنيفة وأصحابه » :
يزعمون أن الإيمان المعرفة بالله ، والإقرار بالله ، والمعرفة بالرسول ،
والإقرار بما جاء من عند الله في الجملة ، دون التفسير . . .

والإيمان : لا يتبعض ، ولا يزيد ولا ينقص ، ولا يتفاضل الناس فيه .
فأما « غسان » ، وأكثر أصحاب « أبي حنيفة » ، فإنهم يحكون عن
أسلافهم : أن الإيمان : هو الإقرار والمحبة لله ، والتعظيم له والهيبة منه ،
وترك الاستخفاف بحقه ، وأنه لا يزيد ولا ينقص ^(١) .

كلمة أضره :

إن فرقة « اليونانية » لا تمثل في دقة مطلقة — فيما نرى — مذهب

(١) مقالات الإسلاميين ص ٢٠٢ — ٢٠٠ من جزء ١ ط النهضة

«الإرجاء»، في أساسه وجوهره، مجرداً عن الدخيل عليه؛ أما صميم هذا المذهب فإنه يتمثل في هذه الآيات السهلة؛ التي قالها شارحاً له الشاعر «المرجىء»: «ثابتُ قُطْنة» وقد اختصرناها من قصيدة له عن مذهب الإرجاء:

المسلمون على الإسلام كلُّهمو	والمشركون استووا في دينهم قد دأ
ولا أرى أن ذنباً بالغ أحداً	م الناس شركاً إذا ما وحدوا الصمدا
من يتق الله في الدنيا فإن له	أجر التقي إذا وفّى الحساب غدا
وما قضى الله من أمر فليس له	رد وما يقض من شيء يكن رشدا
كل «الخوارج» مخط في مقالته	ولو تعبد فيما قال واجتهدا
أما «على» و«عثمان» فإنهما	عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
الله يعلم ماذا يحضران به	وكلُّ عبد سيق الله منفردا

وهو كما يرى القاريء لا يكاد يختلف في كثير أو قليل عن رأى أهل السنة والله أعلم.

الفصل السابع

بدء الاختلاف في الأصول

(١)

بنو أمية ومذهب الجبر :

حينما استقر الأمر ، لمعاوية ، بعد الاتفاق الذي حصل بينه وبين « الحسن بن علي » - رضى الله عنهما - أراد معاوية : أن يثبت في أذهان الناس أن إمرته على المسلمين إنما كانت بقضاء الله وقدره ، فأشاع الفكرة ، وشجع مذهب الجبر ، وأخذ هو ، وخلفاء بني أمية من بعده يثبتون الفكرة بمختلف الوسائل . ومما يوضح ذلك ما رواه البخارى في صحيحه :

عن وراد مولى المغيرة بن شعبة قال : كتب معاوية إلى المغيرة اكتب إلى ما سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول خلف الصلاة ، فأملئ على المغيرة قال : « سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول خلف الصلاة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » وقال ابن جريج أخبرني عبده أن ورادا أخبره بهذا ، ثم وفدت بعدئ إلى معاوية ، فسمعت يأمر الناس بذلك القول .

الباعث على القول بحرية الإرادة :

رأى إذاً بنو أمية أن القول بالجبر يبرر كل ما يأتون من مظالم ، وعملوا على أن يفسر الناس كل ظلم بقضاء الله وقدره : فكان من الطبيعي أن يكون

لذلك رد فعل في البيئته الإسلامية ، وأن يوجد من ذوى الضمائر من يعان
أن فمكرة الجبر خطأ ، وأن الإنسان حر مختار فيما يأتي وفيما يدع . يقول
الشيخ زاهد السكوثرى في مقدمته لكتاب « تبيين كذب المفتري » :

وقد سمع هناك (في البصرة) « معبد بن خالد الجهني » : من يتعمل
في المعصية بالقدر ، فقام بالرد عليه : ينفي كون القدر سالباً للاختيار
في أفعال العباد ، وهو يريد الدفاع عن شرعية التكليف ؛ فضاقت عبارته ،
وقال « لا قَدَرَ وَالْأَمْرُ أَنْفٌ » (١)

ويروى صاحب كتاب المعارف : أن « معبدا » و« عطاء بن يسار » كانا
يأتیان الحسن البصرى وبسألانه : « يا أبا سعيد إن هؤلاء الملوك يسفكون
دماء المسلمين ، يأخذون الأموال . . . ويقولون إنما تجرى أعمالنا على
قدر الله » ويرد عليهما الحسن : « كذب أعداء الله » .

أول من قال بالاختيار :

وكان معبد بن عبد الله الجهني أول من قال بحرية الإرادة ، وإثبات
الاختيار : روى مسلم في صحيحه قال : حدثني أبو خيثمة زهير بن حرب
عن يحيى بن يعمر قال : كان أول من قال في القدر بالبصرة « معبد »
الجهني ، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن ، حاجين ، أو معتمرين ، فقلنا :
لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه عما يقول
هؤلاء في القدر !! فوفّق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخل بالمسجد ،
فاكتشفته أنا وصاحبي ، أحدنا عن يمينه ، والآخر عن شماله ، فظننت

أن صاحبي سيكل الكلام إلى ، فقلت : أبا عبد الرحمن ، إنه قد ظهر قبلنا
ناس يقرءون القرآن ؛ ويتفقرون العلم ، وذكر من شأنهم ، وأنهم يزعمون
الأقدر ، وأن الأمر أنف ، قال : فإذا لقيت أولئك ، فاخبرهم بأني بريء
منهم ، وأنهم برآء مني ، والذي يخلف به عبد الله بن عمر ، لو أن لأحدهم
مثل أحد ذهباً فأنفقه ، ما قبل الله منه ، حتى يؤمن بالقدر .
باب القدر من كتاب الإيمان . جزء ١ ص ١٥٠

ومعبد هذا يقول عنه الذهبي في ميزان الاعتدال : « إنه تابعي صدوق ،
إنه تابعي صدوق ! ، ثم هو يرى الجور يملأ جوانب أقطار الفضاء ،
ويرى تبجح الجائرين وتعللهم بالقدر ! ! فكان لا بد مما ليس منه بد ، وثار
معبد مع ابن الأشعث ^(١) على بني أمية فقتله الحجاج صبراً سنة ٨٠ هـ .

غيره المسمى :

قتل « الحجاج » ، « معبدا » ، لكن فسكرته لم تمت ، فقد أخذها عنه
« غيلان » ، « الدمشقي » الذي يسميه : « الشهرستاني » ، « غيلان » ، بن « مروان » ،
« الدمشقي » ، وقد ترجم له « ابن المرتضى » ، وسماه : « غيلان بن مسلم » ، ووصفه
بقوله : « واحد دهره في العلم ، والزهد ، والدعاء إلى الله ، وتوحيده ،

(١) يقول الدكتور « طه حسين » ، عن ثورة ابن « الأشعث » في كتابه
« الأدب الجاهلي » : (ثم نحن نعلم أن حفيد « الأشعث » ، بن « قيس » ، وهو
« عبد الرحمن » ، بن « محمد » ، بن « الأشعث » ، قد ثار بـ « الحجاج » ، وخلع
« عبد الملك » ، وعرض ملك آل « مروان » ، الزوال ، وكان سبياً في إراقة
دماء المسلمين من أهل « العراق » ، و « الشام » ، وكان الذين قتلوا في حروبه
يحصون فيبلغون عشرات الآلاف) .

وعدله ، ، وعده من « المعتزلة » ، ومن طبقتهم الرابعة .
 أما « ابن الحياط » ، في كتابه « الانتصار » ، فإنه يقول عنه : « وأما
 « غيلان » ، فكان يعتقد الأصول الخمسة التي من اجتمعت فيه فهو « معتزلي » ؛
 وهذه رسائله قد طبقت الأَرْضَ » ، وسواء أكان « غيلان » من المعتزلة
 أم لا فقد أخذ ينشر مذهبه ، وقد اشتهر :

- ١ — بقوله بالقدر خيره وشره من العبد ^(١)
- ٢ — وفي « الإمامة » إنها تصلح في غير « قريش » ، وكل من كان قائماً
 بالكتاب والسنة كان مستحقاً لها ، وإنما لا تثبت إلا بإجماع الأمة ^(٢) .
- ٣ — وفي الإيمان : إنه « المعرفة بالله الثانية : (المعرفة الناشئة عن نظر
 واستدلال) والمحبة ، والخضوع ، والإقرار بما جاء به الرسول وبما جاء
 من عند الله سبحانه وتعالى ، وذلك أن المعرفة الأولى عنده : اضطراب ،
 فلذلك لم يجعلها من الإيمان » ^(٣) ، ولرأيه هذا في الإيمان ، عده « أبو الحسن
 الأشعري » من « المرجئة » .

ويرى « الشهرستاني » بحق أن « غيلان » قد جمع خصالاً ثلاثاً :
 « القدر » ، و « الإرجاء » ، و « الخروج » :

أخذ « غيلان » ينشر مذهبه في عهد الخليفة الصالح « عمر » بن
 « عبد العزيز » (٩٩ — ١٠١ هـ) والروايات مضطربة في موقف « عمر » منه ،
 ولكن الثابت : أنه لم ينله بأذى ، وكذلك الأمر في موقف « يزيد » بن
 « عبد الملك » (١٠١ — ١٠٦ هـ) . فلها تولى « هشام بن عبد الملك »

(١) الشهرستاني ص ٢٦٧ ط بدران (٢) ص ٢٦٧ .

(٣) مقالات الإسلاميين ص ٢٠٠ طبع النهضة المصرية

(١٠٦ — ١٢٦ هـ) توجه غيلان إلى أرمينيا ، فأرسل « هشام » ، في « طلبه » ، وقتله .

لم يقتله هشام ؟ تزعم بعض الروايات : أنه قتله من أجل الدين ولكن هشام لم يكن أكثر تحمساً للدين من عمر بن عبد العزيز ، وقد قال غيلان بالقدر — في عهد عمر بن عبد العزيز — فلم يصب بأذى ، والواقع أن السر الحقيقي يجب أن يلتمس في رأى غيلان في الإمامة ، الذى يصفه الشهرستانى من أجله « بالخروج » .

ويجب أن يلتمس فيما اشتهر به غيلان من تشنيعه على بنى أمية لظلمهم وجورهم ،

ثم لأنه داعية مفعّوه إلى القول « بالاختيار » ، ونفى « الجبر » ، الجبر الذى يدعو إليه بنو أمية تبريراً لظلمهم ، وجورهم .

(٢)

القول بالجبر :

ولكن القول « بالاختيار » يبدو — فى أذهان بعض الناس — وكأنه ينتقص من السيطرة المطلقة الإلهية ، أو كأنه يتنافى مع الخضوع المطلق لسلطانها ، وفى الناس من ملكت فكرة الإلهية عليهم جميع أقطارهم ، فلما رأوا المغالاة فى القول « بالاختيار » ، نازت ثأرتهم فنادوا « بالجبر » ، ودعوا إليه ، نادوا به ودعوا إليه لا لأنه يوافق هوى بنى أمية وينال استحسانهم وتشجيعهم ، وإنما لأنهم رأوا أن ذلك هو الحق الذى لا مِرْيَةَ فيه . وقد حمل علم الدعوة « الجعد » بن « درهم » و « جهم » بن « صفوان » . وقد كان لها بجوار رأيهما فى « القدر » آراء أخرى فى الإيمان ،

وفي الصفات ، وفي غير ذلك مما سنتحدث عنه إن شاء الله تعالى . ولسكننا
نعيجل فنقول : إن رأيهما كان متحداً في جميع المسائل ، والمؤرخون
يذكرون : « أن جهم » أخذ آراءه عن « جعد » حينما تلاقيا في « الكوفة » ؛
ولسكنهم يتحدثون عن « جهم » في قليل من الاستفاضة ، بينما هم لا يكادون
يتحدثون عن « الجعد » بن « درهم » ، ولذلك سنتحدث عن آراء « جهم » ،
مكتفين بها عن آراء « جعد » ، معتقدين : أنها تصور رأيهما معاً
في الأصول .

الجعد بن درهم :

ولقد كان « الجعد » فيما يبدو شخصية لها وزنها ، إذ أنه اختير مؤدباً ،
ومرئياً لـ « مروان » بن « محمد » أحد أمراء بني أمية ، وآخر خلفائهم .
ويظهر أنه كان من قوة الشخصية بحيث « طبع » « مروان » بن « محمد »
بطابعه ، حتى لقب بـ « مروان الجعدي » .

كان مولى لبني « الحكم » ، وكان يقطن « دمشق » ، وأخذ ينشر رأيه ؛
فطلب في « دمشق » فهرب منها ثم نزل « الكوفة » ، وفي « الكوفة » أخذ
ينشر رأيه ، وسكن إلى الكوفة : « خالد بن عبد الله القسري » تلقى الأمر
من « هشام » بن « عبد الملك » الخليفة المرواني بقتل « الجعد » ، فحبسه
« خالد » ، وإذا بكتاب آخر من هشام يأتي بقتله ؛ وصادف ذلك أيام
« عيد الأضحى » ، فلما صلى « خالد » العيد ، وخطب ، قال في آخر خطبته :
انصرفوا ، وضحوا بضحاياكم ، تقبل الله منا ومنكم ، فإني أريد اليوم
أن أضحي بـ « الجعد » بن « درهم » ، فإنه يقول : ما كلم الله موسى تكليماً ،

ولا اتخذ الله إبراهيم خليلاً ، تعالى الله عما يقول علواً كبيراً . ثم نزل وحز رأسه بالسكين بيده .

ونريد أن نتساءل : أحقيقة قتل « الجعد » من أجل عقيدته ؟ . لقد كان يقول بالجبر ، وفي ذلك خير شفيع له عند « بنى أمية » ، ولسكنه كان أستاذاً لـ « مروان » بن « محمد » ، فهل اقتصر على الثقافة والدين لحسب ؟ ، ألم يتدخل في السياسة ؟ ، ألم يوح لـ « مروان » وأولياء « مروان » باتجاه معين ؟ ولم يريد الكشيرون أن يشنعوا على « مروان » ، فيطبعونه بـ « مروان الجعدي » ، ويشيعون ذلك في كل ناد ، حتى يلتصق « الجعد » بـ « مروان » ؟ . أليس للسياسة دخل في هذا ؟ إننا حقاً لنشك في أن الحامل لـ « هشام » ، على قتل « جعد » كان العقيدة ، ويغلب على الظن أن الحامل على ذلك إنما كان هو السياسة ، قاتلها الله .

محمد بن صفوان :

أما « جهم » بن « صفوان » فقد كان منبته « فارس » ، والمؤرخون ينسبونه تارة إلى « سمرقند » ، وتارة إلى « ترمذ » ، وقد ظهر على كل حال أول ما ظهر ، في « ترمذ » .

ومذهبه يعتبر رد فعل لمذهبين ، بدأت بذورهما تتغلغل في الدولة الإسلامية إذ ذاك .

أحدهما : مذهب « الاختيار » ، الذي كان يدعو إليه « غيلان » الدمشقي ، فقال « جهم » : بالجبر .

وثانيهما : إثبات « مقاتل » بن « سليمان » للصفات ، إثباتاً يجعله في زمرة « المشبهة » فقال ، « جهم » بنفى الصفات .

ويروى عن أبي حنيفة أنه قال : أفرط « جهم » فى نفي « التشبيه » حتى قال إنه تعالى ليس بشيء ، وأفرط « مقاتل » فى معنى « الإثبات » ، حتى جعله مثل خلقه . اهـ

ويمكن أن يقال — على هذا النمط — : أن « غيلان » أفرط فى إثبات « الاختيار » ، فأفرط « جهم » فى إثبات الجبر .

أخذ « جهم » يدعو إلى مذهبه فى طمأنينة تامة ، واشتهر أمره ، فأرسل إليه « واصل » بن « عطاء » بعض أصحابه لمباحثته ومجادلته .

ومع مافى آرائه من خطورة : فقد تركه « بنو أمية » هادئاً ، وغضوا الطرف عنه ، فأخذ يعمل جهده ، باثاً دعوته ومجادلاً « للشبهة » ومجادلاً « للاختياريين » ، بل ومجادلاً « للسُّمَنِيَّة » أتباع أحد المذاهب الهندية .

روى الإمام « أحمد » — رضى الله عنه — أن « الجهم » لقي بعض « السُّمَنِيَّة » فقالوا له : نكلمك ، فإن ظهرت حجتنا عليك دخلت فى ديننا ، وإن ظهرت حجتك علينا دخلنا فى دينك ، فوافق على ما قالوا ، فبدوا يسألون : أَلَسْتَ تزعم أن لك إلهاً ؟ قال : بلى ، فقالوا له : فهل رأيت إلهك ؟ قال : لا . قالوا : هل سمعت كلامه ، قال : لا . قالوا : أشممت له رائحة ؟ قال : لا . قالوا : هل وجدت له حساً ؟ قال : لا ، قالوا : فوجدت له بحساً ؟ قال : لا ، قالوا : فما يدريك أنه إله ؟ .

فقال لهم « جهم » : أَلَسْتُمْ تزعمون : أن فيكم روحاً ؟ قالوا : بلى ، فقال لهم : هل رأيتم روحكم ؟ قالوا : لا . قال لهم : سمعتم كلامه ؟ قالوا : لا ، قال : فهل وجدتم له حساً ، أو بحساً ؟ قالوا : لا ، قال : فكذلك

الله لا يُرى له وجه ، ولا يسمع له صوت ، ولا يشم له رائحة ، وهو غائب
عن الأبصار ، ولا يكون في مكان دون مكان . اهـ

وكان من الممكن أن يستمر « جهنم » في هدوئه ، وطمأنينته ، وجدله
هذا النظري ولسكنه تدخل في السياسة ، فحمل السيف ، وخرج مع
« الحارث » بن « سُريج » على خلفاء « بني أمية » ، ودارت رحى الحرب ،
فكانت منيته « بمر » سنة ١٢٨ هـ .

أما آراؤه : فقد شوها كثير من كتبوا عنه ، واقتضبوها اقتضاباً أدخل
بقيمتها ، إذ بتروها عن أسبابها ، ودواعيها ، وأدلتها ، ومن أجل ذلك كان
حكم « الخلف » عليه قاسياً .

ومهما يكن من أمر ، فإن هذا المذهب لم يكتب له الانتشار ؛ والسبب
في ذلك هو ما قلناه سابقاً : من أن هذا المذهب يعتبر شذوذاً في الرأي ،
ونشازاً في التفكير . ذلك أنه : ليس بعقلي ؛ لأنه يقول بالجبر ، وليس بنصي ،
لأنه يقول بالتعطيل . وهو لذلك لا يرضى فريق الأئمة : النصيين ، والعقائيين .
وقد تمزق هذا المذهب ، وتفرق بين مختلف الفرق .

آراؤه :

١ — يرى « جهنم » إيجاب المعارف بالعقل قبل ورود السمع ، فالعقل
يمكنه أن يعرف الخير والشر ، ويمكنه أن يصل إلى معرفة ما وراء الطبيعة ،
والبعث . ويجب على الإنسان أن يعمل بهدى العقل في ذلك ، إذا لم يكن
هناك وعى إلهي .

٢ — والإيمان هو المعرفة التصديقية فحسب ، ولذلك لا ينقسم إلى عقد

وقول ، وعمل ؛ ولا يتفاضل أهله فيه : إذ أنه معرفة ، والمعارف لا تتفاضل ^(١) .

٣ — ومن أشهر آرائه : أنه لا يصف الله بوصف يجوز إطلاقه على خلقه ، لأن ذلك يقتضى تشبيهه ، فلا يوصف الله بأنه شيء ، أو حي ، أو عالم ، أو مرید ؛ لأن الإنسان يوصف بأنه شيء ، وحي ، وعالم ، ومرید . ولكنه يصف الله بأنه قادر ، وموجد ، وفاعل ، وخالق ، وبحي ، وميت : إذ أن هذه الأوصاف مختصة ^(٢) به وحده ويترتب على قوله هذا ، قوله : بنى الرؤية وإثبات خلق الكلام . والقرآن على ذلك مخلوق .

ورداً على هذا يقول بحق الشيخ زاهد الكوثري : لم يفرق « جهم » بين الاشتراك فى الاسم والاشتراك فى المعنى ، والممنوع : هو الثانى دون الأول ، بشرط كونه وارداً فى الشرع : لأن العلم مثلاً ما ورد وصف الخالق به ، والمخلوق ، مع أنه ليس بمشترك بينهما فى المعنى ، لأن علم الله حضورى ، وعلم المخلوق حصولى ، وكذلك بقية الصفات ^(٣) ٥١ .

٤ — وأشهر آرائه : قوله بالجبر ، إنه من « الجبرية الخالصة » ، على حد تعبير الشهرستانى .

إن الإنسان — فى رأيه — لا يقدر على شيء ، ولا يوصف بالاستطاعة ؛ وإنما هو مجبور فى أفعاله ؛ لا قدرة له ، ولا إرادة ، ولا اختيار ، وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق فى سائر

(١) الشهرستانى ص ١٣٧ ط بدران

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ١٩٩

(٣) مقدمة تبين كذب المفترى ص ١٢

الجمادات ، وتنسب إليه الأفعال مجازاً ، كما تنسب إلى الجمادات ؛ كما يقال : أثمرت الشجرة ، وجرى الماء ، وتحرك الحجر ، وطلعت الشمس وغربت ، وتغيّمت السماء وأمطرت واهتزت الأرض وأنبتت ... إلى غير ذلك ^(١) .
إلا أن الله خلق الإنسان قوة كان بها الفعل ، وخلق له إرادة للفعل واختياراً له منفرداً بذلك ، كما خلق له طولاً كان به طويلاً ، ولونا كان به متلوناً ^(٢) ،

٥ - وكان « جهنم » ينتحل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ^(٣)

٦ - ويحكى عن « جهنم » أنه قال بفناء الجنة والنار ، ويختلفون في تعليله لذلك : فيرى « الشهرستاني » أن تعليله إنما هو : استحالة تصور حركات لا تنتهى آخراً ، كما لا تتصور حركات لا تنتهى أولاً .

ولسكتنا نرى أن هذا التعليل أشبه بكلام « أبي الحزبل العلاف » ، منه بكلام « جهنم » .

ويقول « الأشعري » : عن تعليل « جهنم » ، لذلك : « حتى يكون الله آخراً لشيء معه ، كما كان أولاً لشيء معه » ^(٤) .

ويقول صاحب الفرق بين الفرق : إن « جهماً » : « وإن قال بفنائهما فقد قال : بأن الله — عز وجل — قادر بعد فنائهما على أن يخلق أمثالهما » .
ما هو رأي « جهنم » بالاضبط في أمر الجنة والنار ؟ . ذلك ما لا نقينه

(١) الشهرستاني ص ١٣٦ ط بدران

(٢) مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ج ١ ص ٣١٢ ط النهضة المصرية .

(٣) مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ص ٣١٢

(٤) مقالات الإسلاميين ص ٢٢٤

في وضوح لا لبس فيه ١ . وكنا قد أردنا أن نضرب عن ذكره صفحاً ؛
ولكنه - على ما فيه من غموض غامض - مذكور في كثير من الكتب .
ومع ذلك فإننا نتفق كل الاتفاق مع الشيخ « زاهد السكوثرى » ، في قوله
عن « جهنم » :

وتنسب « لجهنم » آراء ، وليس له فرقة تنتمي إليه بعده ، ونسبة غائب
من نسب إليه ، من قبيل التنبؤ باللقاب تهويلاً لسوء سمعة الرجل بين الفرق ،
وآراؤه توزعت بينهم بعد تمحيصها على حسب أنظارهم ، لا على ما ارتآه
« جهنم » ، شأن كل رأى يشيع في الناس » (١) .

على أن مقاومة هذه الحركة العسكرية الدينية كانت عنيفة . وقد نهض
كثير من العلماء ، كما يقول الدكتور « أحمد أمين » ، لمقاومة هذه الحركة ،
ونشطوا للرد على الجهمية نشاطاً عظيماً ، ولعل أهم ما حملهم على الرد مسألتان :
مسألة الجبر ، لأنها تدعو إلى التعطيل ، وترك العمل ، والركون إلى القدر ،
ومسألة المغالاة في تأويل الآيات التي تثبت لله صفات . وفي هذا التأويل
خطر على القرآن وتفهم معانيه » (٢) .

تعقيب :

رأى « بنو أمية » أن القول بالجبر يوطد مركزهم ، ويوجه الأذهان
نحو تبرير مظالمهم بنسبتها إلى قضاء الله وقدره ، فكان من الطبيعي
أن يعملوا جهدهم على نشر هذه الفكرة .

وئارت بعض الضمائر ضد الظلم ، وضد الجور والعسف ، فنادوا
بالاختيار ، وحرية الإرادة .

(١) مقدمة تبين كذب المفترى ص ١٢

(٢) فجر الإسلام للدكتور أحمد أمين .

وتلّس هؤلاء ، وأولئك ، مايسند رأيهم ، من نص قرآنى ،
أو حديث نبوى .

وغالى القائلون بحرية الإرادة ؛ فكان لموقفهم رد فعل ، فرأى قوم
أنهم يحدون من شأن الألوهية ، فأخذوا — مخلصين — ينادون بالجبر .
يقول الشيخ « زاهد الكوثرى » : « ولما بدأ يذيع رأى « معبد » أخذ
فى الرد عليه « جهنم » بن « صفوان » بخراسان فوقع فى الجبر ، ونشأ عنه
مذهب الجبرية . »

كل هذه المواقف كانت طبيعية ، لا شأن للأثر الأجنبى ، أو الدخيل
فيها ، ولكن التعصب المذهبى أخذ يمل على أصحابه ماشاءت الظنون وشاءت
الاهواء تشويها ، وانتقاصا لهذه الآراء التى ظهرت ظهوراً طبيعياً .

ولذلك يجب ألا نغير أية أهمية : لما يذكره « ابن نباتة » مثلاً
فى « سرح العيون » أو المقرئى فى خططه عن أصل مذهب « الجبر » ،
أو أصل مذهب « الاختيار » ، فلسنا — والحق يقال — بحاجة
إلى « سوسن » نصرانى ، أو إلى « طالوت » يهودى ، على أن يكون أصلاً
لهذه المذاهب فى الإسلام . ولسنا كذلك بحاجة إلى قرائن : « يهود نصيون » ،
أو ربانيين : « يهود عقليون » لتفسير نشأة الجبر ، أو الاختيار ، فى الإسلام :
إذ أن نشأتها الطبيعية لا لبس فيها ولا إيهام . والله أعلم .

(٣)

الحسن البصرى :

« كثيرون : هم الذين عرفوا بالتقوى والورع والعلم أيام الدولة الأموية ،
ولكن قل أن تجد فيهم من أحرز مكانة « الحسن البصرى » ، أو ترك

في النفوس أثراً عميقاً بهيد الحدود كالذى تركه الحسن ، وقد يكون لعلبه وزهده وقدرته البيانية ، دخل كبير في ذلك ؛ ولكن هذه الملاحظات جميعاً ليست إلا مظاهر من شخصيته المحبوبة ، المحترمة ، المهيبة ، التى كادت تبرأ في جوهرها من النفاق في القول والعمل ، وتسلم من التناقض الصريح ، بين ما تريده وما تجده .

وقد كان الواقع العملى في الحياة يومئذ يفرض على الناس - كما يفرض عليهم في كل زمان - أن يعملوا بغير ما يقولون ، وأن يخفوا غير ما يظهرون وأن يسكتوا حين يكون الكلام واجباً ؛ وفي ذلك الجو الذى تمثله تذبذبات القراء ، حين كانت تجربهم مغريات المال والجاه ، أو تنزلهم من صوامعهم المثالية ضروريات الحياة ، وقف الحسن يجاهد نفسه ، ويروضها على عبادة المثل الأعلى ، رياضة نبي نذير ، قد أصلح نفسه وعرضها على الناس ، ليثبت لهم أن بلوغ الغاية أمر غير مستحيل^(١).

وصف درس :

قال « أبو حيان التوحيدى » في وصفه لدرس ، « الحسن البصرى » نقلاً عن « قرة الحرائى » : « ويجمع مجلسه ضرباً من الناس ، وأصناف اللباس لما يوسع من بيانه ، ويفيض عليهم بأفئانه : هذا يأخذ عنه الحديث ، وهذا يلقي منه التأويل ، وهذا يسمع منه الحلال والحرام ، وهذا يتبعه في كلامه ، وهذا يجرد له المقالة ، وهذا يحكى له الفتيا ، وهذا يتعلم الحكم والقضاء ، وهذا يسمع الموعدة ؛ وهو في جميع هذا كالبحر العجاج تدفقاً . . . يجلس تحت كرسيه « قتادة » صاحب التفسير ، و « عمرو » ، و « واصل » صاحباً

(١) الحسن البصرى : لاحسان عباس ص ٣

الكلام ، و « ابن أبي سحاق » صاحب النحو و « فرقد السنجي » صاحب الرقائق ، وأشباه هؤلاء ^(١) ونظراؤهم .

موقف الحسن من « الجبر والاختيار »

والروايات عن « الحسن » في مسألة « الجبر والاختيار » متضاربة ، وقد حاول أصحاب كل رأى جره إلى رأيهم : فابن المرتضى مثلاً في كتابه « المنية والأمل » يعد « الحسن البصري » من « المعتزلة » في الطبقة الثالثة ، ويروى له رسالة بعث بها إلى الحجاج تثبت أنه يقول « بالاختيار » ، بينما يرى الشهرستاني أن هذه الرسالة ليست « للحسن » ولعلها كانت لـ « واصل بن عطاء » ، فما كان الحسن ممن يخالف السلف في أن القدر خير وشره من الله تعالى ، وأن هذه الكلمة كالجمع عليها عندهم .

وقد سبق أن بينا أن رأى السلف إنما هو الاستسلام لله ، وقد كان « الحسن البصري » يثور في وجه من يتعلمون ، لاتبائهم المعاصي ، بالقول « بالقضاء والقدر » . وكان « الحسن » يثور أيضاً حينما يرى المغالاة في إثبات مشيئة إنسانية حرة ، مطلقة الحرية ، بجوار مشيئة الله ؛ فقد كانت عظمة الله تسيطر على نفسه سيطرة لا حد لها : ومن هنا اختلف النقل عنه ، وأرادت كل فرقة أن تشرف بالانتساب إليه ، وتقوى برأيه .

ولكن اختلاف الروايات عنه لا يمكن أن يفسر ، فيما نعتقد ، إلا بالاستسلام التام لله تعالى . والله أعلم ، وبالله التوفيق .

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ
رَحْمَةً ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ؟

(١) من كتاب المقابسات .

الفهرس

المقدمة من ص ٥ إلى ص ١٢

الفصل الأول

الجو الذي نشأ فيه الإسلام (من ص ١٣ إلى ص ٤٤)

- ١ - الحنفاء ١٣ - ٢٥
- ٢ - الحكماء ٢٥ - ٣٠
- ٣ - التحمس الديني والخلق ٣٠ - ٣٤
- ٤ - الفكرة العامة عن العرب وتصحيحها ٣٤ - ٣٧
- ٥ - الأديان في جزيرة العرب ٣٧ - ٣٨
- ٦ - آراء عن العرب ٣٨ - ٤٣
- ٧ - العرب حسبنا نعتقد ٤٣ - ٤٤

الفصل الثاني

القرآن (من ص ٤٥ إلى ص ٨٨)

- ١ - وصف القرآن ٤٥ - ٤٦
- ٢ - مشقة الدعوة ٤٦ - ٤٧
- ٣ - القيمة الدائمة للدعوة الإسلامية ٤٧ - ٤٨
- ٤ - وسائل الدعوة لهداية العرب ٤٨ - ٥١
- ٥ - الدعوة الإسلامية دعوة موحدة ٥١ - ٥٢
- ٦ - إثبات الرسالة ٥٢ - ٥٦
- ٧ - معارضة العرب ٥٦ - ٦١

٨	فكرة الألوهية	٦١ — ٦٧
٩	البعث	٦٧ — ٧٢
١٠	موقف القرآن من معتقدات العرب ومن المسيحية واليهودية	٧٣ — ٨٥
١١	القرآن وأسئلة العرب	٨٥ — ٨٨

الفصل الثالث

الفرق والأحزاب الدينية (من ص ٨٩ إلى ص ١٢٢)

١	حديث الفرق وتقسيم المتقدمين	٨٩ — ٩٢
٢	رأى الشيخ محمد عبده فى حديث الافتراق	٩٢ — ١٠٥
٣	قيمة الحديث	١٠٥ — ١٠٧
٤	رأينا فى تقسيم الفرق	١٠٧ — ١١٨
٥	رأى ابن خلدون فى تقسيم الفرق	١١٨ — ١٢٢

الفصل الرابع

مذهب السلف (من ص ١٢٣ إلى ص ١٤٨)

١	البحث النظرى فى عهد الرسول	١٢٣ — ١٢٤
٢	موقف الصحابة من البحث فى الدين	١٢٤ — ١٢٩
٣	موقف الأئمة من علم الكلام	١٢٩ — ١٣١
٤	موقف السلف من مشكلة القدر	١٣١ — ١٣٥
٥	موقف السلف من الأخبار الموهمة للتشبيه	١٣٥ — ١٤٧
٦	رأى بعض الغربيين فى أبحاث ما وراء الطبيعة	١٤٧ — ١٤٨

الفصل الخامس

التفكير في عهد الصحابة (من ص ١٤٩ إلى ص ١٦٢)

- ١ — التخرج عن التفكير في ذات الله ١٤٩ — ١٥٠
- ٢ — التفكير في مسائل الفقه ١٥٠ — ١٥٤
- ٣ — بعض مظاهر الاختلاف بين الصحابة ١٥٤ — ١٦٢

الفصل السادس

الاختلاف في الإمامة (من ص ١٦٣ إلى ص ١٩٦)

- ١ — أصل الشيعة ١٦٣ — ١٦٤
- ٢ — رأينا في أصل الشيعة ١٦٤ — ١٧٣
- ٣ — فرق الشيعة ١٧٣ — ١٧٥
- ٤ — مذهب الإمامية ١٧٥ — ١٧٦
- ٥ — شجرة الأئمة ١٧٧
- ٦ — الزيدية ١٨٧ — ١٨٠
- ٧ — الشيعة وأصول الإسلام ١٨٠ — ١٨١
- ٨ — رأينا في الشيعة ١٨١ — ١٨٢
- ٩ — الحوارج : نشأتهم ١٨٣ — ١٨٤
- ١٠ — ألقاب الحوارج ١٨٤ — ١٨٥
- ١١ — ما يجمع الحوارج ١٨٥ — ١٨٦
- ١٢ — النقاش بينهم وبين الإمام علي ١٨٦ — ١٨٨
- ١٣ — تقدير الحوارج ١٨٨
- ١٤ — المرجئة : المرجئة ومؤرخو الأديان ١٨٩ — ١٩١

صحيفة

- ١٤ — نشأة المرجئة ١٩١ — ١٩٢
 ١٦ — أراؤهم ١٩٢ — ١٩٤
 ١٧ — اليونسية ١٩٤ — ١٩٥
 ١٨ — أبو حنيفة وأصحابه ١٩٥

الفصل السابع

بدء الاختلاف في الأصول (من ص ١٩٧ إلى ص ٢٠٣)

- ١ — بنو أمية ومذهب الجير ١٩٧
 ٢ — الباعث على القول بحرية الإرادة ١٩٧ — ١٩٨
 ٣ — أول من قال بالاختيار ١٩٨ — ١٩٩
 ٤ — غيلان الدمشقي ١٩٩ — ٢٠١
 ٥ — القول بالجبر ٢٠١ — ٢٠٢
 ٦ — الجعد بن درهم ٢٠٢ — ٢٠٣
 ٧ — جهم بن صفوان ٢٠٣ — ٢٠٨
 ٨ — تعقيب ٢٠٨ — ٢٠٩
 ٩ — الحسن البصري ٢٠٩ — ٢١١
 الفهرس ٢١٢ — ٢١٥

سلسلة في الدراسات الفلسفية والأخلاقية

يشرف على إصدارها الدكتور محمود قاسم أستاذ الفلسفة المساعد بجامعة القاهرة

أسماء الكتب التي ظهرت من هذه السلسلة :

- ١ - المنقذ من الضلال لحجة الإسلام الغزالي
مع مقدمة مستفيضة في منطق التصوف
للأستاذ الدكتور عبد الحلیم محمود
بكلية أصول الدين بالأزهر
- ٢ - فلسفة ابن طفيل ، ورسائله « حى بن يقظان »
للأستاذ الدكتور عبد الحلیم محمود
- ٣ - الفيلسوف المفترى عليه ، ابن رشد ،
للأستاذ الدكتور محمود قاسم
بجامعة القاهرة
- ٤ - التصوف عند ابن سينا
للأستاذ الدكتور عبد الحلیم محمود
- ٥ - التفسير الفلسفى فى الإسلام
للأستاذ الدكتور عبد الحلیم محمود